اقرأ
سلسلة ثقافية شهرية
تصدر عن دار المعارف

محمد هيكل

بوابات مصر



اقرأ

سلسلة ثقافية شهرية

تصدر عن دار المعارف

[٧٢٣]

رئيس التحرير

إسماعيل منتصر

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة
لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

هيكل ، محمد .
بوابات مصر .
محمد هيكل .
- ط ١ - القاهرة : دار المعارف ، ٢٠٠٨ .
١٦٨ص ؛ ١٧ سم . (سلسلة اقرأ) .
تدمك ٢ - ٧١٩٧ - ٢ - ٠ - ٩٧٧ - ٩٧٨
١- مصر - الجغرافيا .
أ- العنوان .

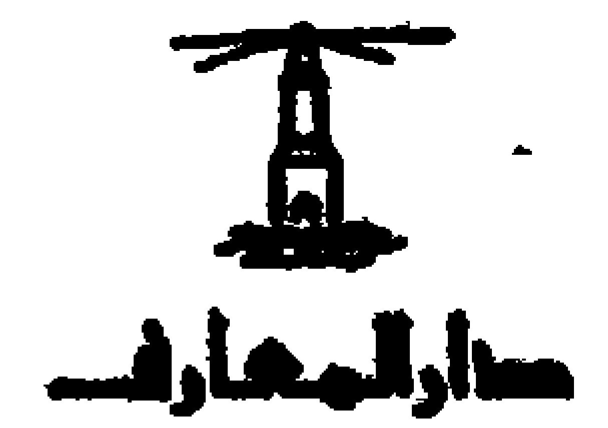
ديوى ٩١٦,٢

رقم الإيداع ١٣٦١٦ / ٢٠٠٨   ٤ / ٢٠٠٨ / ١

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .
هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ -- فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ - E-mail: maaref@idsc.net.eg

محمد هيكل

بوابات مصر



دار المعارف

اقرأ

إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها، لم يفكروا إلا فى شىء واحد، هو نشر الثقافة من حيث هى ثقافة، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية. وأن ينتفعوا، وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من الثقافة، والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التى نحياها.

طه حسين



أحلام شهرزاد - العدد الأول من سلسلة اقرأ الشهرية صدر عام ١٩٤٣

إهداء

من أرض مصر الطيبة نبتنا

وعليها ارتوينا وعشنا

وإليها.. نعود لِنُزْرَعَ فيها

إلى

بشر وحجر مصر

أهدى هذا الكتاب

محمد هيكل



مقدمة

عاش السـفر داخلى منذ نعومة أظفـارى، وكأن روح المغامرة التى نبتت داخلى، قد تمكنت منى، وشـجعنى فـى ذلك والدى «حسن» رحمة الله عليه، وعدم إعتراض أمى «دولت» .

كنت فى الثانية عشرة من العمر، وبدأت فى القيام ببعض مهام أبى العائلية، كنا نقطن مدينة دسـوق فى الخمسينات وأوائل الستينات من القـرن الماضى، وفى الأعياد،كان علىَّ السـفر إلى المنصورة إذا لم يتمكن أبى من زيارة عمتى التى كانت تقطنها، أسـتقل قطار الدلتا من دسـوق حتى طنطا، وأسـتقل عربـة حنطور تقلنى مع «الزيـارة» وهى مكونة من «سبتين» بهما ما يجود به الأهل للأهل، وأصل إلى محطة الأتوبيس، لأركـب الأتوبيس المتجه إلى المنصورة، ومن ثم أؤَجِرُ حنطورا إلى حيث تعيش عمتى «أنصاف» .

واستعذبت الرحلات

وعندما هممت فى شـتاء ١٩٦٥ بالسفر إلى الأقصر وأسوان فى رحلة الثانوية العامة، وكنا قد قطنا المنصورة وجدت دموع جدتى لأبى «بهية» تنسـال وهى تقول «يا ولدى هاتتغرب ليه وأنت لسه عودك أخضر» .. فترد أمى بحنان.. «يا خالتى محمد رايح مع زملائه ليتعلم» . !

هكذا.. رأت أمي في السفر سبع فوائد، ولأنها شخصية قوية ونافذة مع حنـــان جارف، بدأت فــي زرع هذا الذى تملكنى، بــل وتنميته، ربما كان بوعى الأم الفطرى التى تدفع وليدها لاكتساب الخبرات.

من هنا

بـــدأت رحلتـــى المحترفة مع الســـفر منـــذ الأيام الأولى للدراســـة الجامعية.

...

وكنت قد انغرست في حب الوطن بوعي، والانحياز إلى الفقراء منه بـــلا تعصب، وبدأت أفهم أننى لكى انحاز إلى الوطن، لابد من التعرف إليه.. وجاء انحيازى المطلق إلى فقراء الوطن عقب حادثتين.

الأولى: وفـــاة أمى فى عام ١٩٦٩، وكنت حينذاك على جبهة القتال فى الســـويس، نغنى للوطن، ونحلم باســـتعادة ما ســـلب منـــا فى عام ١٩٦٧.

والثانيـة: عندما ســـافرت إلى المنوفية - لأول مرة - لأجرى تحقيقا صحفيا لمجلة الشـــباب العربـــى، الذى كان يـــرأس تحريرها فى ذلك الوقت د. مفيد شـــهاب أمين شـــباب مصر. وكان التحقيق عن «محاولة ســـرقة أحلام ٣٣ أســـرة كانت قد تمتعت بحقوق المواطنة والتملك لأول مرة فى قرية تســـمى «الكوم الأحمر» بالقرب مـــن مدينة أشمون.. لكن لســـوء الحظ، كانت الحراســـة قد فرضـــت بطريق الخطـــأ، وعندما تم تصحيح الخطأ لصالح أســـرة طلعـــت الفرنســـاوى، كان على الفلاحين

أن يتركـوا أرضهم، وقـد تعرضت أنا والمصور صـبرى الليثى للتهديد والرشـوة، إما أن نسـلم ما معنا من أوراق وصـور، وإما أن نقتل، وفى حالـة التسـليم نحصل على عشـرين ألف جنيه، مـع ملاحظة أن أبى أعطانى جنيهين، وأعطتنى المجلة استمارات سفر! .. لم نسلم وهربنا فى الفجر، واكتملت القصة بالسـفر إلى أشمون وشـبين الكوم.. وقامت القيادة السياسية فى هذا الوقت بحل محترم، يحترم حقوق الفلاحين، وحقوق الملاك.. !»

هاتان الحادثتان حسـما داخلى انحيازى إلى الفقراء، وإلى الحقيقة فى هذا الزمان.. وهذه المرحلة العمرية.

...

سكنى الوطن وفقراؤه

وعندمـا سـافرت إلى الوادى الجديد، فى عـام ١٩٧١ وقطنت قرية تسـمى «بولاق» بالقرب من مدينة الخارجة، أرسلت خطابا لأبى أشرح له ظروف الغربة، وكانت إجابته لى فى رسالة واضحة تقول: «أى غربة تتحدث عنها، لقد زرت نصف مصر، وبقى لك النصف الثانى، أنت فى وطنك مادمت تشـعر بالمواطنة الحقيقية، وأنت فى بلدك مادمت تؤدى واجبك تجاهه، يا ولدى.. مصر بلدك» . !

أى أب جميـل هـذا الذى يزرع الأمل وحب الوطـن فى نفس وقلب وعقل ابنه.

...

لقد تحول عشـــق الســفر والانتماء إلى الفقراء والبحث عن الحقيقة ومساعدة زوجتى «سميرة» على الترحال، وعدم ممانعتها لهذا العشق.. إلى عشق لهذا الوطن.

عاشــق أنا لمصر نيلهــا.. طينهـا.. رمالهـا.. والأكثر لناســها أولئك الذين سكنوا مصر بلا مزايدة، أو تزايد.

وكانت رحلتــى إلى الوطن، الناس، الحجر، هــى - كما قال عمنا جمال حمدان - محاولة لرسم صورة مصر، ومصر بلا شك موضوع مثالى نظـرا لما تتمتع به من طبيعة جغرافية واضحة الحدود، ولما تمتلكه من تاريــخ حافل، كمــا أننا الآن فى حاجة لفهم كامــل لوجهتنا، كياننا، مكاننا، إمكانياتنا، ملكاتنا.

...

وبحثــى فى أقاليم مصر.. مدنهـــا.. وقراها.. ونجوعها حلم يختلط بالحقيقة!

فــإذا كان «فرويد» يرى فى الحلم دلالة علـــى الماضى، وكان «يونج» يرى فى الحلم دلالة على المستقبل، ورؤية المعنى فى التاريخ كما تقول «نعمات أحمد فؤاد» دلالة على المستقبل، فإن وعى التاريخ ليس اجترارا للماضى، إنها معاصرة واستجماع للانطلاق.

هذا ما يحدونى وأنا أتأمل خارطة الوطن، وبوابات مصر الحدودية.. وقد طاردنى لإكمال مشــوارى مســألتان الأولى وصف مصر، الذى أعده

مجموعــة من الباحثين الفرنســيين قبــل أكثر من مائتــى عام، وقدمه مترجما لنا أحد دراويش مصر «زهير الشايب» والثانية حلم العم جمال حمدان فى شخصية مصر.

أجوب أرض مصر

أبحث عن البشر والحجر.. عن الحقيقة

...

وإذا كان مايــتردد من أن مصر هــى «أرض المتناقضات» ربما تحت التأثير الشــديد بين الفروق الاجتماعية الصارخة، أو بين خلود الآثار القديمة، وبســاطة المســكن الفردى، أو بين الــوادى والصحراء، حيث يتجاوران جنبا إلى جنب، كما تتجاور «الحياة والخلود» .

لذلك.. فنحن أمام حالة نادرة من البلاد - كما يقول جمال حمدان - من حيث السمات والقسمات، وبالنظر إلى مصر تحديدا، فهى بالجغرافيا تقع فى إفريقيا، وبالتاريخ تنتمى إلى آسيا، وهى متوسطية دون مدارية بعروضهــا، وموسميــة بمياهها وأصولهــا، هى فى الصحراء وليســت منها، إنها واحة ضد - صحراوية بل ليست بواحة! وإنما شبه واحة، هى فرعونية بالجد، وعربية بالأب، ثم إنها بجسمها النهرى قوة بر، ولكن بســواحلها قوة بحر، وهى تضع بذلك قدما فى الأرض، وقدما فى الماء، وهى تمد يدا نحو الشــمال، وأخرى نحو الجنوب.. وهى توشــك أن تكون مركزا مشــتركا لثلاث دوائر: «فى قلب الوطن العربى، ووسط العالم الإسلامى، وحجر الزاوية فى العالم الإفريقى.

وهـى بذلـك.. لا تجمع بين الأضـداد والمتناقضـات، وإنما تجمع بين أطراف غنيـة ومتعددة، وجوانب خصبة، ولعـل فى هذه الموهبة الطبيعية، سـر بقائها وحيويتها، وهى حسب نظرية «هيجل» تجمع بين «التقرير والنقيض» فى «تركيب متزن أصيل، ومن ثم تظهر «حقيقة» تتحول إلى «قانون» أن النيل ليس مانحا - فقط - للحياة فى مصر، لكنه مـوزع للحياة على وجهها، لذلك فهو محور مصـر وعمودها الفقرى، ومصر بدورها هى نيلية التركيز والاستقطاب.

ويقرر د. جمال حمدان أن الشـعب المصرى منذ فجر التاريخ وحدة جنسية واحدة الأصل، متجانسة بقوة فى الصفات، والملامح الجسمية، وقد ظل محافظا على هذا التجانس حتى اليوم، ويمكن الكشف عن هذه المسألة بسهولة من أن التماثيل الفرعونية منذ عصر الأهرامات، تتطابق وجوهها مع وجوهنا الحالية.

...

وأقـرر وأتفق مع د. نعمات فؤاد ما توصلت إليه، وما تحققت منه: أن مصر شـخصية ولعة بالولادة والتوليد، فيها نُزُوع إلى السلاسـة فى همـس يبلغ فى الخفوت قـوة التوثيق، فيها حنان فـى حنايا الأعمدة وعروق النبات ونمنمة فى الفن، فإذا بالتشـابه والتشابك ليس بينهما فراق أو شقاق.

وهى.. شخصية فيها ثراء البساطة، وزهد الغنى، وجلال التواضع، وسكينة من مسالمة وسلام.

وهنا

على هذه الأرض:

نضج الإنسان والنضج وعى، والوعى سعى إنه تحريك القوى فى كل مكان.. وهذا ما حدث فى مصر.

إذ إن مصر تعلمت من الحجر الصبر، ومن النور البهجة، ومن الماء الرقة والعذوبة ومن السماء الرحمة، كما أن مصر أحبت الشمس ورأت فيها انتصارا على الظلمة، انتصار الحق على الباطل.

...

والثابت – على حد تعبير د. نعمات فؤاد – أن المصريين انبهروا بواديهم الأخضر، وسموه أكثر من اسم، فهى – أى مصر – عندهم «كيمة» أى «السمراء» و «تاكيمة» أى «الخمرية» و «تاوى» أى «الأرضين» و «ايدبوى» أى «الضفتين».

وقالوا:

«ايره رع» أى «عين الشمس». و «جاه نثرو» أى «عين رب الأرباب» و «إترتى» أى «ذات المحرابين». و «باقة» أى «الزيتونة» الخضراء دائما.

وأطلق عليها الجيران من الكنعانيين والأشوريين والفينقيين والبابليين «مصرى ومشرى ومصرم ومصرايم ومصرين» واختتمها القرآن الكريم بـ «مصر».

وتمتد كلمة «مصر» إلى القرن الرابع عشر قبل الميلاد، وهناك من يقول: إن «كلمة مصر مركبة من كلمات ثلاث بمعنى «بلد أبناء الشمس» والكلمات الثلاث هي:

«ما» بمعنى موضع.

«سى» بمعنى ابن.

«رى - را» بمعنى الشمس.

ومنها: «راع» الذى ينسب إليه بعض الفراعنة، ومن حب المصريين لمصر، كان قدماؤهم يسمون أنفسهم «شعب الشمس» و «الشعب النبيل» و «شعب الإله».

كما أن «مصر» فى القرآن الكريم ﴿ جَنَّٰتٍ وَعُيُونٍ ۝٢٥ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ۝٢٦ وَنَعْمَةٍ ﴾ (١).

يقول الكندى: «وصفها بما لم يصف به مشرقا ولا مغربا، ولا سهلا ولا جبلا ولا برا ولا بحرا» .. ومصر فى القرآن الكريم ﴿ ٱهْبِطُوا۟ مِصْرًا فَإِنَّ لَكُم مَّا سَأَلْتُمْ ﴾ (٢).

حتى «آدم» الذى فتح عينيه على الجنة، راعته مصر كما يقول الأسيوطى، تمتم «لاخلت مثلك يا مصر بركة، ومازال بك حفظ، ومازال منك ملك وعز، يا أرض فيك الخباء والكنوز، ولك البر والثروة، سال نهرك عسلا، كثر الله زرعك، ودر ضرعك، وزكى نباتك، وعظمت بركتك».

---

(١) سورة الدخان الآية ٢٥- ٢٧.

(٢) سورة البقرة الآية ٦١.

..

هذه هى مصر، التى أحاول البحث فيها وعنها، وشرف لى أن أكون واحداً منها، هى أرض أجدادى، ومفتاح الحل لأحفادى.

المؤلف

محمد هيكل



النوبة.. الحجر والبشر

فى المبتدأ:

الحضارة المصرية هبة أهلها.. لأنها إبداع خاص بالمصريين، ووثائق التاريخ.. وحفائره أثبتت وحدة ونقاء الجنس المصرى على حد توثيق «فلندز تبرى» .

هاتان حقيقتان وهما منطلقتان من إيمان عميق بوحدة الوطن، ومسيرته الحضارية التى تؤسس للوعى الذى ينتقل من مستوى «الخصام والدعوة إلى الفرقة والسعى إلى تحقيق مصالح ضيقة» إلى مستوى «الحوار المنطلق من مسائل لا تقبل القسمة على اثنين، وصولا إلى مستوى الوحدة، غير متجاهل لمسألة التنوع واحترام الخصوصيات» .

ذلك يدفع إلى تأسيس الوعى بالتاريخ الذى يصنع نهضة الأمة، ويرسخ للعلاقات الحقيقية القائمة بينها، ووحدة التنوع هى ضرورة حتمية للتقدم فى الزمن، بالتاريخ وفى التاريخ.

...

هذه السخونة فى المشاعر «انتابتنى» نتيجة عاملين:

الأول: تلك الإثارة المجوجة حول أثنية الوطن المصرى، الذى يضم فى مقدمة رئتيه «النوبة» .. تلك الأرض بنية اللون، ومواطنها الأسمر، الذى فى سمرته رمز الأصالة، وأصالة الانتماء إلى الأرض الطيبة.

فضلا.. عن تلك الدعوة المسـمومة فى «الانفصال» وتحويل الخصوصية النوبية، والتنويعـة المصرية إلى حق فى تكوين هامش منعزل عن الوطن الأم باسم الظلم والإهمال والتهجير والإبادة، وذلك عبر بوق أمريكا راعية النزعات الانفصالية والزعزعة الدينية والتفرقة العنصرية.. مع التأكيد على تباين اللون، بالرغم من أن بعضا من أصدقائى وأهلى، وهم من أصول شمالية خالصة. لا يختلفون قيد أنملة فى لونهم عن أهلنا فى النوبة.

الثانــى: زيارتى – مؤخــرا – لمتحف النوبة بأســوان، الذى يعد «مفخرة» على المستوى الفنى، وفى العمق، هذا النسيج المصرى الخالص عبر الســنين، التى شكلت بحق «حضارة» هى «هبة المصريين» والتعبير للدكتور زاهى حــواس، لأنها تمثل نقاء خالصا للجنس المصرى، الذى لا يفرق بين شماله وجنوبه وغربه وشرقه.

(١)

ومازلنا فى المبتدأ

فــى إهداء الروائى النوبى حجاج أدول إلى محمود ســيالى فى رواية «الكُشــر» .. ذكــر أن محمودًا نصح أهلــه بالصعــود إلى الجبل، حتى ينجُوا من الموجة النيلية، وألّا ينحدروا شمالا، فلم يســتبينوا النصح، إلا ضحى الغد. !

والمعروف «طبيعيا» أن الموجــة النيلية تأتى من الجنوب، لأن نهر النيــل، هو النهر العاصى، لأنه ضد الطبيعــة – كما يقول عمنا جمال

حمدان – «كل أنهار الدنيا تنبع من الشمال وتصب في الجنوب، إلا نهر النيل، فينبع من الجنوب ويصب في الشمال، إنه العاصي الأعظم» !

ولنتأمل مقولة «أدول» وهي ليست اجتزاءً من النص:

«تجرى المياه الأفريقية نحو الشمال محملة بالغرين المخصب، قائلة لناس الوادى، خذوا المياه المقدسة، وازرعوا بها أرض الله المقدسة، كلوا هنيئا مريئا، ولا تسـرفوا، ولا تنسـوا ربكم الواحد الأحد الذى يرسل لكم تلك المياه الولادة بقدر» .

ويبـدو أن الكابوس الذى هاجم قرية توماس – فى رواية الكشـر – بذلك الطوفان الذى سيغرقها، ونفس الكابوس الذى هجم بنت عبد الله شـاتى حتـى أعياها، هو ذلك السـد العالى الـذى أدى إلى إغراق أرض النوبة. ويبدو – أيضا – أنه كابوس حجاج أدول.

ويتضح – أيضا – من الرواية، تلك «الولولة» من جانب نسـاء قرية تومـاس خوفا من الطوفان الذى سـيغرق قريتهـن، صار الهاجس لدى أدول، والذى تحول من حق التوطين فى أرض الأجداد المقدسة، إلى تلك الهجرة غير الطوعية، وتحول لديه من حق المواطنة، إلى دعوة الانفصال وتكوين ما يسمى «بيت النيل» .

وأعـترف بهـذا التسـجيل الإبداعى، مـن خلال المـوروث الذى يتضـح فى هذه الصورة البديعة التى سـاقها أدول لنسـاء قرية توماس «رقصة النائحات الجماعية» مازالت نساء القرية غارقات فيها. يَحْثُون الرمال على رءوسـهن، يدبدبـن بأرجلهـن ذات الخلاخيل فيعطيهم

الرنين إيقاعا حادا، يلوِّحن بأياديهن، فتصدر صلصلة الغوايش الذهبية والخزفية، صلصلة قدر يحوم ويستقر على رءوسهن» !

هذه الصورة الصادقة لنســاء توماس النوبية، هى ذاتها متكررة فى ريف مصر الشمالى، ومتكررة فى نجوع الصعيد.

...

أفهم.. واســتوعب هذا العالم القديم - الــذى يقدمه أدول - حيث العذوبــة والخيــال، حيث اللعب فى الجرن، والجموح الجنســى لدى المراهقين فى لعبة «الاستغماية» .. كلها محصلة طبيعية للتعامل البسيط مع الطبيعة، وهى تمثل الخصوصية، لكنها لا تعنى الانسحابية.

...

وقد اتفق حجاج أدول فى رواية «الكُشــر» ومحمد خليل قاســم فى «الشــمندورة» .. فى ذلك الخطر القادم من الفيضان، على إثر بناء السد العــالى عند أدول، والتعلية الثانية لخزان أســوان عند قاســم، لكنهما اختلفــا فــى المقصد، الأول ينعــى، ويطالب بالقصاص مــن خلال كيان انفصالى يســمى «بيت النيل» .. والثانى يبحث عن العدالة الاجتماعية، وعلى حد تعبيره «نحن نوبيون نعرف معنى أن تكون نوبيا وفقيرا» !

والشــمندورة - على حد وصــف فريدة النقــاش - رواية كفاح من الطــراز الأول، هنالك قرية «قتة» وعدد من قرى بلاد النوبة التى تمثل فيما بينها كيانا اجتماعيا وتاريخيا متسقا، تحشد قواها وتستعين بكل مقوماتها الروحية والمادية لمواجهة الطوفان القادم.

«نتشبث بمواقع أقدامنا على الجرن» .. وهو تشبث به كيان حضارى واجتماعى متماسك، مهدد بالاندثار من خارجه، عاجز بحكم حدوده على التناطح مع الفيضان القادم، مع الدقات العنيفة على أبوابه للعالم الخارجى الذى لا يأبه به.

لقد أنتجت الثقافة الخاصة ببلاد النوبة - والتى تكونت عبر تاريخ طويل فى أعماق جنوب الوادى لتمتد إلى شماله - عددا من خيرة مثقفى مصر، منهم زكى مراد ومحمد خليل قاسم ومحمد حمام ومحمد منير - ليسهموا أكبر كثيرا من الكم العددى لأبناء النوبة، وليصبح هذا الإسهام علامة مضيئة فى ثقافتنا المصرية المعاصرة.

واسمعوا معى آخر سطور الشمندورة.. وهى تحمل الأمل

«وقبل أن يختفى النجع، رأيت النيل يبرق بثريات باهرة، تصعد، ثم حانت منى التفاتة جانبية إلى الشمندورة الحمراء، فوجدتها ترتطم ارتطاما شديدا بالسلسلة التى تشدها إلى قاع أليم، ثم تهدأ، لتعاود النضال من جديد» !

والرواية.. ليست بكاء على أطلال، وانتقاما من واقع سياسى أو تاريخى، لكنها رؤية متفائلة للعالم، مؤمنة بالإنسان، وبحقه فى العيش بحرية وكرامة.

(٢)

يمتد نظرى من أعلى قبة فى أسوان، من كوخ يسمى «البيت النوبى» تتكشف أسوان أمامى، يتجه نظرى جنوبا جنوبا، لكن سرعان ما أتحول

شمالا فى حركة لا إرادية.. إذن هو «الوطن» من جنوبه إلى شماله.

والبيت النوبى ليس متحفا للتاريخ، إنه «مقهى» متواضع، لكنه فى موقع سحرى.. مع إطلالة صباح جديد، تشرق الشمس الذهبية ناشرة نورها، محتضنة النيل، الذى أتصفح أبجديته بفخر إلى درجة الحماسة، فأشتعل دفئا، وفى غروبها - أى الشمس - وبنفس اللون الذهبى، تغطس فى مياه النهر، لكنها فى الصباح التالى تعود، لتنفض عنها رزاز المياه النيلية المقدسة بعد أن توضأت بها، لتعلن نهارًا جديدًا.

ما بين الأمس

واليوم.. وغدا

أذهب للتاريخ

هى.. ليست محاولة لتمصير النوبة، أو إكسابها هذا اللون البنى لنيل مصر، أو أننا أبناء وطن واحد.

ليست القضية فى رأسى ويقينى ذلك.

إنما هى.. قضية الوطن الواحد متعدد الأعراق، متباين الثقافات، الذى أفرز حضارة، هى هبة أهلها.

وما يدهشنى - حقا - ويثير الأسئلة المفتقدة فى رأسى، كيف صنع الإنسان المصرى حضارته؟ كيف طوّع الحجر، وصنع منه فنا؟ كيف تعامل مع هذه الطبيعة القاسية منذ آلاف السنين فى هذه البقعة المقدسة من أرض مصر؟

من البيت النوبى من فوق هذه القبة العالية الساحرة أتأمل مجرى النهر، هذه الصخور العاتية، وعندما أجلس القرفصاء أمام رمسيس الثانى فى معبد «أبو سنبل» أنتظر سطوع الشمس على وجهه فى الواحد والعشرين من شهر فبراير، والواحد والعشرين من شهر أكتوبر من كل عام، وفى الساعة السادسة وخمس وثلاثين دقيقة بالتمام والكمال، وعبر آلاف السنين، مع تغير العوامل المناخية.. أتأمل ذلك.

إذن هناك سر

لكنه ليس سحرا

هناك علم

وليست خزعبلات!

وعندما أتأمل تمثاله المسكون فى حضن الجبل والذى يرتفع أكثر من ثلاثين مترا وبجواره زوجته نفرتارى الجميلة أخالنى يقول لأحفاده وكل من اندهش لرؤيته من كل أجناس الدنيا: «يا أطفالى.. لكى تبقى الحضارة، يجب أن يكون العلم والإبداع والجدية والإخلاص.

...

وندخل إلى عالم الحجر

فالمسافة من أسوان إلى «أبو سمبل» ، كانت مسرحا لحضارة نوبية، ولنتأمل تقسيم النوبة جيومورفولوجيا وجيولوجيا، وهى تنقسم إلى وادى النيل والصحارى.

فــى الوادى يمر النيل النوبى من حلفا إلى أســوان، قاطعا مســاحة ٣٥٠ كم عــبر وادٍ ضيق تحفه أجراف حادة الانحدار، وفيما بين حلفا وبلانة، شــق النهر واديه فى صخور من الحجر الرملى، وإذا كان هذا المجرى قد اختفى الآن تحت بحيرة السد العالى، فإن بقايا هذه الصخور لا تزال طافية مثل الجزر على سطح البحيرة.

وفيما بين منطقة وادى العلاقى وأســوان، شق النيل واديه فى أرض جرانيتيــة تعلوها طبقة رقيقة من الحجر الرملى، وقبل تكوين بحيرة الســد العالى، كان النهر يشق مساره فى الصخور المتبلورة عند كلابشة بعرض لا يزيد على مائتى متر، وكانت هذه بمثابة أضيق بقعة للنيل فى مصر، مما انتفى معه وجود أى سهل فيضى على جانبيه، وعند أسوان، يتخلل النهر كتل هائلة من الصخور النارية التى تشكل الجندل الأول، وفى شماله، تتلاشــى هذه الصخور الناريــة، لتظهر بدلا منها الجزر الطينيــة والرملية، التى ترتكز علــى بقايا صخور نارية أو طبقات من الحجر الرملى.

والشق الثانى:

الصحــارى: وفيمــا بين أدنان وكلابشــة، تحف أجــراف الحجر الرملــى ببحيرة الســد العالى، وهى طبقات أفقيــة معتدلة الميل ناحية الشمال، متعددة الألوان، ما بين الأسود والبنى المحمر والأصفر الباهت والرمادى الأبيض، مما أعطى منطقة النوبة صبغة بنية متميزة.

وقد تأثرت صخور الحجـر الرملى بالصدوع الكثيرة ذات الاتجاه، شرق - غرب، خاصة جنوب مرتفعات كورسكو، وشمال - جنوب، فى شمال وجنوب كورســكو، بعضها له امتداد ملحوظ مثل صدع كلابشة، وقد كانت لهذه الخطوط التركيبية أثر كبير فى تشكيل تضاريس منطقة النوبــة، ويرى ذلك فى اتجاهات الأعــراف «Ridges» ، وفى الظواهر المورفولوجية، وفى مسار النهر، وتتخذ الأشكال المورفولوجية اتجاهًا شرق غرب فى الجنوب، وشمال جنوب فى شمال كورسكو، وفى المنطقة الواقعة بين كورسكو وأسوان، حيث يظهر الجرانيت والنيل الأسوانى تحت غطاء رقيق من الحجر الرملى، كما أن ظهور الكثبان الرملية سمة مميزة للمنطقة.

أما فــى الجنوب بالقرب من «أبى سـنبل» ، فتظهر الموائد الصخرية، والأقمــاع المخروطية مــن الحجر الرملى على جانبى بحيرة الســد العالى، وتظهر الأعراف الطولية من الحجر الرملى شمال كورســكو بدلا من التلال المخروطية من الحجر الرملى، نتيجة ما يســمى الحركة التقوسية، عندما تحيط بمسافة منبسطة ومتسعة أكثر من ٣٠٠ كم جنوب صدع كلابشة.

(٣)

.. وفى زيارة للتاريخ

وبالكشــف عن البشــر فى هذه البقعة المقدسة، من أرض مصر، تشير الكشوف الأثرية إلى مدى الارتباط الحضارى الذى جمع أهل وادى النيل،

جنوبه وشمالــه، فخلال الحقــب الزمنية المختلفة، التى تعرف باســم العصر الحجرى القديم، تنقلت بين جنباته جماعات اعتمدت فى حياتها على صيــد الأسماك والحيوانات البرية، ويســتدل على ذلك من الأدوات الحجرية التى خلفوها وراءهم، والرســوم الصخرية المنقوشة على جانبى النهــر، التى أوضحت إقامة مســاكن مؤقتة قريبة مــن النهر، وقد عثر على آثار هــذه الجماعات فى أماكن عديدة مثل «عافية وخور داود ووادى السبوعة وتوشكى» .

وتشــير الوثائق والكشــوف الأثرية إلى أن تحولات حضارية طرأت على أهل النوبة منذ أكثر من ١١ ألف ســنة، إذ عثر فى موقع «النبطة» ٤٥ كم غرب أبى ســنبل، على شواهد معمارية من منازل ومقابر تعتبر مؤشرا لاتجاه المجتمع نحو الاستقرار، مما يشكل مرحلة انتقالية بين العصر الحجرى القديم، والعصر الحجرى الحديث.

ومع نهاية الألف الرابعة قبل الميلاد، استهل الشطر الشمالى لوادى النيــل عصــوره التاريخية، عندما اخترع نظامــا للكتابة، وتمكنوا من إنشــاء دولة موحــدة، تصرف أمورها حكومة مركزيــة واحدة، إلا إن الأمــر لم يســر فى النوبة على نفــس الوتيرة، نظــرا لظروفها البيئية والجغرافية، ولضيق مســاحة الأراضى الصالحة للزراعة، لذلك، كانت خطاهم فى الحضارة أبطأ من أشقائهم الشماليين.

ونظــرا للرابطة العضوية بين شمال الوادى وجنوبه، لم يجد علماء الآثار مناصا من التوفيق فى الرؤية التاريخية، فقد انتشرت فى العصر

الفرعونى شـواهد كثيرة فى أماكن مختلفة فـى النوبة، وتدل الصفات التشـريحية لأصحابها على أنهـم لم يختلفوا «عنصريـا» عن أقرانهم الشـماليين، ويشير تزايد السـكان على أن عناصر مهاجرة من الشمال استقر بها المقام فى النوبة.

كما تتوفر شـواهد كثيرة على صلة النوبيين بالشـماليين، فقد عثر فى بعض دفنات عصر بداية الأسرات على رءوس مقامع بمقابض ذهبية وأدوات نحاسية وصلايات وأوانٍ فخارية وحجرية كلها مصرية الطراز، وفى جبل سليمان جنوبى بوهن نقشت لوحة باسم الملك «جر» أحد ملوك الأسرة الأولى المبكرين.

وفى الدولة القديمة ٢٧٠٠ – ٢٢٠٠ ق.م كانت مصر تمر بواحدة من أزهـى وأرقى عصورها التاريخية، وقد ارتـأت حكومتها المركزية فى «منف» أن تبسـط سـلطانها على كل أطراف الدولة، بما فى ذلك النوبة السـفلى، وكذلك أنشطتها فى المحاجر، لا سـيما محجر «الديوريت» غربى توشكى، وظهرت فى أماكن مختلفة أشهر ملوك هذا العصر أمثال «خوفو وخفرع ومنكاورع» من الأسـرة الرابعة، و «سركاف وساحورع» من الأسرة الخامسة.

وزاد نشـاط الحكومـة المركزيـة كثافـة خلال الأسـرة السادسـة ٢٣٤٥ – ٢١٨١ ق. م، ويظهـر ذلـك فـى نصوص بعـض كبار رجال الدولة، وحكام أسـوان، فقد قام الموظف المشهور «ونى» بتمهيد خمس قنوات للملاحة النهرية بين صخور الجندل الأول لتيسير سبل الملاحة

بين شـطرى الوادى، وجند فى جيشه عناصر نوبية من «أرثت وواوات ويـام ومجاى» لمحاربـة المغيرين من البدو على حدود مصر الشـمالية الشـرقية، وقام «حرخوف» حاكم أسـوان بأربع رحلات استكشـافية فـى النوبة وصل فيها إلى «يام» التى كانت تقع جنوب الجندل الثانى، ذلـك فضلا عن أسمـاء الأماكن والقبائل النوبيـة التى راحت تتردد فى النصوص المصرية، فقد ظهر فى متون الأهرام اسـم الإله النوبى «ددون» والذى يوصف بأنه «جالب البخور» .

(٤)

وبعـد مرور المصريين بتجربة شـديدة المرارة بعـد وقوعهم تحت الهكسوس، تغير مفهومهم للحدود الآمنة فى الدولة الحديثة ١٥٥٠–١٠٧٠ ق.م .. ومـا إن تخلصوا من الحكم الأجنبى، وتحررت إرادتهم، حتى سـعوا إلى توطيد أركان اسـتراتيجية دفاعية جديدة، قامت على أسـاس توسـيع حدود مصر، والتى هيأت بناء أول امبراطورية مصرية فى أفريقيا، بل وآسيا.

وانعكس الفكر السياسـى المصرى الجديد على علاقة مصر بالنوبة، ولم ينس الفراعنة الجدد، تحالف دولة «كوش» النوبية مع الهكسوس، لذلك وجدوا لزاما عليهم ضرورة القضاء على أدنى خطر قد ينشأ، ويهدد الأمن القومى، وذلك بضم جنوب الوادى إلى الدولة المصرية فى الشمال.

وإذا كان الفضـل يرجـع إلى كل مـن «كامـس وأحمـس» فى عودة النوبة السفلى إلى سـابق عهدها كجزء من الدولة، فإن الفضل يعود إلى

«تحتمس الأول» فى القضاء على الكوشية ودخول عاصمتهم «كرما» .. والوصول إلى الجندل الرابع، وفى عهد حفيده «تحتمس الثالث» غدت النوبة بأسرها - من الجندل الأول حتى الرابع - جزءًا لا يتجزأ من الدولة المصرية.

ولم تعد النوبة فى نظر الدولة المصرية مجرد إقليم حدودى، ينبغى حمايته بالقلاع والحصون - كما كان الحال فى الدولة الوسطى - وإنما اعتبرتها امتدادا طبيعيا للأراضى المصرية، تسرى عليها النظم التى كانت مطبقة فى سائر أنحاء الدولة.

(٥)

ويتسم التراث الشعبى النوبى بالثراء والتنوع، ويتمتع بخصوصية تميزه عما عداه فى أرجاء وادى النيل، نظرا لأنه نتاج ثلاث جماعات:

١ - الكنوز ويتكلمون اللغة المانوكية.

٢ - الفديجة ويتكلمون اللغة الفاديجية.

٣ - عرب العليقات الذين وفدوا على النوبة من شبه جزيرة سيناء خلال القرن الثامن عشر الميلادى.

وتتكون قرى النوبة من مبان مقامة من الحجر والطمى والرمل، أما أسطح منازل محدودى الدخل فتتكون من جريد النخل وسيقان الذرة، وأسطح الميسورين هى على شكل قباب مبنية من اللبن، وعادة ما تفرش أرضية المنازل بالرمل النظيف، وتتدلى من أسقفها أدوات

الاســتخدام اليومي، ويزيــن جدران المنزل خاصــة الواجهات حليات وزخــارف، ويتكون المنزل - عادة - من المدخــل، الفناء، غرف النوم «القبارى» المخزن، المطبخ «الديوكة» والمرحاض والمزيرة.

وتتعــدد أنواع الحلى النوبية، منها القلادات والدلايات والأســاور والخواتم والأقراط وزمام الأنف والخلاخيل، وغالبا ما تصنع من الذهب أو الفضة، وتطعم بأحجار شــبه كريمة، وتنحصر الصناعات والحرف النوبية فى الســلال والحصير من ســعف النخيل والأوانى الفخارية، ويذكر هنا، أن هذه الصناعة اعتمدت اعتمادا كاملا على النســاء اللاتى يبدأ إعدادهن لها منذ الصغر. !

ولجأ النوبيون - شــأنهم فى ذلك شــأن أبناء الــوادى - إلى التمائم والأحجبة والأحراز لجلب الخير، وقد أخذت أشــكالا مختلفة، منها ما يرسم على الجدران مثل العقرب والعين وشكل المثلث، ومنها الضفائر المصنوعــة من الخرز والصوف، وتعلق على أعمدة أســرة النوم، ومنها ســلال الخوص الملونة والمزينة بقواقع ناصعة البياض تتدلى من أسقف الغرف مثل النجف.

ويتسم الرقص النوبى بالجماعية، يشترك فيه الرجال والنساء على حد ســواء، ويرتبط بموســم الزراعة والحصاد، مما يســاعد على وفرة المحصول وسعة الرزق.

والزواج النوبى، مسئولية الوالدين، وإن كان العم والخال يشتركان فى تحمل المسئولية، لأن نظام القرابة النوبى، نظام مزدوج، بمعنى أنه يجمع بين النسب الأبوى والأمومى.

ويعتبر زواج الفتى من ابنة عمه، مسألة أخلاقية - كما يحدث في القبائل الشمالية - وإذا تزوجت الفتاة بغير ابن عمها أو ابن خالها، يصبح مهرها أقل بكثير!

ويحرص النوبيون على تقديم النقوط والهدايا العينية لأسرتي العروسين، للمساعدة في إقامة حفلات الزواج - ولأن النيل يشكل عنصرا جوهريا في الثقافة النوبية - لذلك يتعين على العروسين أن يهبطا إليه ليلة الزفاف، ويغتسلا بمياهه أملا في جلب الخير وإنجاب الأطفال!

(٦)

وأصل إلى «الخبر» ... للإجابة عن «المبتدأ» .

وتتمحور الإجابة في جملة واحدة «متحف النوبة» . !

وتعود فكرة إنشاء المتحف إبان الحملة الدولية لإنقاذ آثار النوبة، في الستينات والسبعينات، من القرن العشرين، ليضم التراث الأثرى والتاريخي والحضارى والبيئي لبلاد النوبة - كما يقول أسامة عبد الوارث مدير المتحف - وليكون تتويجا لدور الحملة الدولية لإنقاذ هذه الآثار بأن تعرض في متحف.

وتلخصت فكرة تنسيق الموقع - كما يقول د. أحمد نوار الذى حمل على عاتقه ورفاقه إنشاء المتحف - على اعتبار التكوينات الصخرية من أبرز عناصر الموقع، واستعمالها في تكوينات متنوعة، تميز

التنسيق المطلوب، ليجعله مناسبا لعرض التماثيل واللوحات الأثرية كبيرة الحجم فى الهواء الطلق.

كما تم عمل مجموعة من المسارات، وحفر قنوات مائية وبحيرات ترمز إلى نهر النيل من المنبع إلى المصب، مع مجموعة جنادل توضح العلاقة بين النهر والقرية النوبية المحاطة بنباتات ذات أصول مصرية قديمة، إضافة إلى مسرح مكشوف، وعرضت على جدرانه مجموعة من الرسوم لحيوانات ما قبل التاريخ.

ويتكون المتحف من ثلاثة طوابق «تحت الأرض ويحتوى على قاعة العرض الرئيسية ومعامل الترميم والورش، والأرضى، ويحتوى على المداخل الرئيسية وقاعات العرض، أما الطابق الأعلى، فيحتوى على كافيتريا ومكتبة ومكاتب الأمناء وإدارة المتحف ومركز للمعلومات.

والمتحف مقام على مساحة ٧٠٠٠ م٢، تحتل مساحة الموقع الخارجى والمكشوف ٤٣٠٠ م٢ ، فيما تحتل مساحة قاعات العرض ٣٥٠٠ م٢، و ١٠٧٠ م٢ للمخازن، و ٢٣٧٠ م٢ للخدمات العامة.

ويطمح المتحف - على حد تعبير أسامة عبد الوارث - فى أن يصبح مركزا علميا لعرض التراث الحضارى النوبى من الناحية التاريخية والأثرية، إضافة إلى الجيولوجية والثقافية، من أقدم العصور حتى بناء السد العالى، كما أن المتحف مصمم ليكون مركزا للدراسات المتحفية بمنطقة أسوان.

والمتحف يستقبل زواره على مدار العام بشكل مكثف - كما تقول مسئولة العلاقات العامة حنان الجابرى - ويستضيف الندوات والمؤتمرات سواء كانت ثقافية أم علمية، فضلا عن أن مكتبة المتحف تقدم للباحثين والزوار ما يحتاجونه من كتب باللغات المختلفة.

وعن أناقة المتحف ونظافته، تقول: هذه تخرج من نطاق الوظيفة إلى حيز الإيمان بالموقع، باعتباره متحفا لحضارة عريقة، وواجهة حقيقية لمصر، ونحن لا نقل عن الفرنسيين فى الاهتمام بآثارنا، وإذا كان أجدادنا قد تركوا لنا هذه الثروة ممثلة فى هذه الحضارة العظيمة، فمن باب أولى على الأحفاد الاهتمام بها، ورعايتها.

ويرى د. أحمد نوار:

أن المتحف ظل حلما طال انتظار تحقيقه، وهو يحكى قصة الكفاح العظيمة للإنسان المصرى، بين الصخور العتيدة، وشلالات النهر الجارفة، وهو يبنى حضارة تتحدى الزمن، فنا وعلما وثقافة، وهو يخلد ذكرى التلاحم الرائع بين شعوب العالم فى استجابتها لنداء اليونسكو لإنقاذ آثار النوبة.

وتبرق عينا «نوار» وهو يلخص المشروع المتحفى بقوله: «متحف النوبة جوهرة سمراء تفيض سحرا وجمالا فى جنوب مصر» .

(٧)

وإذا كان للدكتور أحمد نوار الحق فى أن يرتعش جسده وهو يزور المتحف بعد تسع سنوات من افتتاحه، خوفا من أن يكون قد

لحقه الإهمال، شأن مشروعاتنا الجميلة، والتى تبدأ برَاقةً وسرعان ما يعلوها التراب، وإذا كانت لدموعه الحق فى أن تذرف بعد أن وجده معافًا أنيقا شابا . !

ولى الحق، فى أن أمشى مختالا، بالرغم من إيمانى بالآية الكريمة : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴾[1].

وإعجابى بمقولة أبى العلاء المعرى

خفف الوطء ما أظن أديم الأرض إلا من هذه الأجساد

وجدتنى أخرق ما أؤمن به، واختال، فإذا كان «نوار» قد دمع لرونق ما شارك فى صنعه، فأنا لدى أسبابى:

«إن فى مصر متحفا بهذا القدر من الرونق، فضلا عن أن هذه الحضارة التى شيدها أجدادى، تمثل حياة نهر، وحياة إنسان، وكفاح استمر، وعُمْر امتدَّ» !

---

(١) سورة الإسراء الآية ٣٧.

حلايب - أبو رماد - الشلاتين: أرض الأحلام

هبطت الطائـرة أرض مطـار برنيس، أنتظر بشـوق رؤية الأرض، الناس، وأنتظر بلهفة ملامسة واقع مصرى على حدود جنوبية تبحث عن أمنها بشكل حقيقى، ألتهم التاريخ، وأقفز إلى الواقع، أصل إلى نتيجة: هذه أرض أجدادى، وهى مفتاح الحل لأحفادى.

هـذا التكويـن الرائـع، أرض ممتـدة - ذهبية اللون فـى المنظور الإبداعى - صفراء فى الحقيقة، يجاورها البحر الأحمر بزرقة صافية، فيقابله امتداد جبل «علبة» بشموخ يحسد عليه.

نقطع نحو مائة كيلو إلى الشلاتين، الضلع الأول فى «مثلث الأحلام» .. نلتقـى بعيون الجمال الواثقة، الباحثة عن بعض من طعام لتختزنه للزمن، وفى انتظارها على الجانب الآخر «سمسـار» يبحث عن عمولة من بيعها، لتسـتقر فى النهاية فى بطون تبحث عن لحم آمن، فى زمن أنفلونزا الطيور!

تقابلنا الوجوه السمر

بعضهـا «كالح» بحكم التجاهل والتباعد الذى اسـتمر طويلا، لكن وجـوه الأطفـال ذى سمـرة ناصعة، لأنهـا لامعة، وربمـا حالمة بغد أفضل!

«حسين» ..ابن العاشرة اصطحبنا فى جولة سياحية - على عربته الكارو وحماره. فى سوق الشلاتين، متطوعا، رافضا أن يتقاضى أجرا، لأننا على حد قوله ضيوفه، وفى المقابل طلب أن يرى الفندق الذى نعيش فيه، والأكثر: دورة مياهه!

«السوق» ..علبة صفيح، تحتوى على بهارات و بن وبعض أصداف، وسياح متناثرين جاءوا من مرسى علم.. وربما تحتوى هذه «العلب الصفيحية» أحلام البيزنس فى المستقبل!

نبحث عن مصريتنا فى وجوه الأطفال، ونبحث عن المستقبل على صفحات الرمال الممتدة، ونتشوق أملا فى وجوه الرجال المثبتين على هذه الأرض التى تستحق الحياة.

جئنا جميعا إلى حدودنا الجنوبية من مصر.

من الحدود الشرقية «العريش» ومن وسط الصعيد «بنى سويف» .. ومن القاهرة «المركز» .

كنا رفقة عددها مائة. بعضنا موظفون فى الثقافة الجماهيرية، وكثير منا فنانون يبحثون عن أبجدية وجودهم الإبداعى، على هذه الأرض البكر.. وبعض منا صحفيون.

بعض من الرفقة ضمت: طلعت مهران وألبير إبراهيم ومجدى شلبى من كبار موظفى الهيئة، ومعهم الجميلان محمد عزت ووليد مهدى، ومن الباحثين المفتونين بالمنطقة من خلال تراثها الفلكلورى مسعود شومان، ومن الصحفيين أحمد هريدى ويسرى السيد والفتى سيد يونس.

كلٌ يبحــث في وجه الآخر عن «الانفعــال باللحظة التاريخية على هذه الأرض» .

كنا أول قافلة ثقافية تصل إلى هذه المنطقة الســاحرة البكر، الهامة بوضعيتها الاستراتيجية، المثيرة للجدل فى كتب التاريخ، وفى أجندة الساســة، الباحثة عن مكان لائــق بها على خريطــة الاهتمام المصرى الرسمى والشعبى.

هى.. تحتاج إلى التنمية البشرية – كما يقول عمنا جمال حمدان – فى تنمية الصحراء، عندما كان يبحث عن العلاقة الحميمة بين الأرض والبشر، والإنسان والوطن.

حدثنــا فــى حماس قبــل الرحلة، د. أحمــد نوار رئيــس الثقافة الجماهيريــة.. «هــى – أى الرحلــة أو القافلــة – تهــدف إلى تحقيق الانتشــار الثقافى، وتغطيــة المناطق الحدودية والنائيــة، كما تهدف إلى تحقيــق التفاعل بين ثقافة المركز وهــذه المناطق، لتنصهر فى بوتقة واحدة، وتعطى ملمحا ومذاقا خاصا، لتعبر عن الثقافة المصرية بجذورها الثابتة والممتدة عبر القرون، وما تحمله من قيم وعادات وتقاليد، تسهم فى النهاية فى ترقية الوجدان المصرى، وتعمل على تأكيد أصالته» .

يضيــف.. «والقافلة تأتى فى إطار نشــاط مدروس للتوجه إلى جميع المناطق المحرومة من الثقافة» . !

(١)

أمضينــا أســبوعا. ننتقــل فيه من ضلــع إلى ضلع آخر فــى المثلث،

من الشــلاتين إلى أبو رماد إلى حلايب، المساحة الإدارية حوالى ٢٥٠ كم من جملة المســاحة الكلية البالغة ١٨ ألف كــم.. وهو يبعد عن القاهرة كثيرا كثيرا، يبعد مئات السنين، لأن عمره آلاف، آلاف السنين.

المدهش.. تفاعل الناس.. هم عطشــى للثقافة المصرية، برغم وجود «الدش» على كل منزل من «الصفيح» !

كل ليلة.. تتأنق النســاء. ويرتدى الرجال الملابس النظيفة. ويحوم الأطفال فى فرح!

وتضمنــت القافلة فرقة بنى ســويف للفنون الشــعبية التى بهرت مواطنى المثلث، بألوان ملابسها الزاهية، وتابلوهاتها التى تمثل الحياة فى وادى النيل، خاصة الزراعة ومواســم الحصاد، فضلا عن الإيقاعات السريعة، والموسيقى الغنية بتراث الإنسان المصرى فى الوادى.

وقد تأسســت الفرقة – التى تغلبت على أحزانها عقب محرقة قصر ثقافة بنى سويف كما يقول مدرب الفرقة محمد الحريرى – عام ١٩٩٥. وتتكون من ٤٥ عضوا ما بين راقص وراقصة وموسيقيين ومنشدين.

وقد شاركت الفرقة على مدار العقد الماضى فى مهرجانات: بلغاريا وأســبانيا واليونــان والمجــر وإيطاليا، ومــن برامجهــا: الفرعونى، الفلاحــى، الصعيــدى، الآلات الشــعبية، المولــد، الفــرح الفلاحى، الحصان، والتنورة.

أما فرقة ســيناء البدوية للــتراث التى جاءت من أقصى حدود مصر

الشـــرقية من «العريـــش» إلى أقصى حدود مصر الجنوبيـــة فى «المثلث» فقد أحدثت تأثيرا بالغا لدى المواطنين، لتشـــابه العـــادات والتقاليد، وبدا التفاعل ساخنا بين الطرفين.

ويمكن القول.. إنها فرقة مميزة فى تقديم التراث البدوى الأصيل، وكان لأغانى ومواويل حميد إبراهيم، مع الأداء الحركى لإيمان الدسوقى بملابســها العرايشية ذات الطابع الفلســطينى أثر بالغ فى التجاوب، بـــل والفهم المشـــترك بين مواطنى مصـــر فى المثلـــث، وفنانى مصر من سيناء الشمالية.

والفرقة التـــى حرصت على تجميع التراث الســـيناوى، تتكون من ٢٥ عضوا، وتعزف موسيقاها على آلات المجرونة والسمسمية.

أما «الأراجوز» الذى قدمه أحمد شـــكوكو ابن شـــقيق الفنان الراحل محمود شكوكو، فقد ألهب خيال الكبار قبل الصغار.

والأراجوز.. وهو أحد أشكال مسرح العرائس، عاش طويلا فى مصر «بطرطوره» الطريف، وصوته المميز، وعصاه الصغيرة، التى يضرب بها من يحاوره أو يختلف معه.

وهـــو يقدم عرضـــا فكاهيا ســـاخرا من «حدوتة أو نكتـــة» تعبر عن تناقضات المجتمع، ويؤكد علماء الآثار أن الأراجوز وجد فى الحفريات المصرية القديمة، أى إنه فن مصرى أصيل، نقله فيما بعد الأتراك أثناء احتلالهم مصر.

(٢)

والمثلث.. يضم الشلاتين التى تقع على خط عرض ٢٢ شمالا، وقرية أبــو رماد التى تبعد ١٣٣ كم من الشــلاتين، وحلايب وتبعد ١٧٠ كم، ورأس حدربة وتبعد ١٩٠ كم، وأبرق وتبعد ١٣٥ كم، ومرســى حميدة وتبعــد ٥٠ كــم.. كما تبعد الشــلاتين عــن الغردقة بنحــو ٥٥٠ كم، وعن مرسى علم ٢٥٠ كم.

ويبلغ عدد سكان المثلث – كما يقول العميد على شوكت رئيس مدينة الشــلاتين مع نهاية عام ٢٠٠٥ نحو ١٥ ألف نســمة.. وتتخلل الحدود الإدارية للشــلاتين منطقة سهل ساحلى يزداد فى الاتساع كلما اتجهنا جنوبــا حتى قرية أم رماد، كما تمتد سلســلة جبال البحر الأحمر فى الاتجاه الغربى للشلاتين، ومن أهمها جبال «أبرق» الفرايد، أم الطيور، علبة، حمرادوم، حدربة، ملدوب.

وتخترق سلســلة جبال البحــر الأحمر عددا من الوديــان أهمها: «ســعقة، الرحبة، حوضــين، أبو ســفيرة، دعب، كرات، ســرارة، الشــلال، ميســح» .. ويوجد عدد من الآبار الصالحة للشرب.. أهمها: «الجاهلية، أبابيب، العمريب» .

وتقع الشــلاتين جنوب مدار السرطان، وذلك يؤدى إلى ارتفاع درجة الحرارة تســعة شهور فى السنة، ويوجد منفذان مع السودان «حدربة، سوهين» .. ويربط منفذ حدربة بالشلاتين طريق أسفلتى بطول ١٩٤ كم، وتدخل منه البضائع الواردة من ولاية بور سودان شرق السودان، أما منفذ

«ســوهين» فيتصل بمدينة الشــلاتين «بمدق» بطول ٢٠٠ كم وتدخل منه البضائع الواردة من ولاية وادى النيل.

وأهم الواردات: الإبل، الحاصلات الزراعية، السمســم، الكمون، الذرة الرفيعة، الفلفل الأسود.

وتمتلك مدينة الشــلاتين وقراها مســاحة تبلغ ٢٥٠ كم على ساحل البحر الأحمر، الذى يحتفظ بكميــات كبيرة من أجود أنواع الأسماك، كمــا أن المنطقة غنية بالثروات المعدنيـــة، ومقومات الصناعة.. ويطالب العميد على شوكت بوضعها على خريطة التعدين.

وهناك ثلاث حرف رئيسية هى الرعى والصيد والزراعة، والرعى.. هى الحرفة الرئيسية لأغلب سكان المثلث، إذ إنهم بدو رحل، يتجولون باســتمرار حول الآبار والوديان، وتعتبر الإبل هى الحيوان الرئيســى فى المنطقة، وهناك نوعان:

١ - إبل الحمل وهى قوية العضلات، ضخمة السنام، ثقيلة الوزن.

٢ - إبل الهجن، وهى سريعة العدو، خفيفة، قليلة الشحم.

(٣)

وترجع الأصول الســكانية الأولى لســكان المثلث منذ القدم إلى قبيلة «البجــا» التى كانت تعيش منــذ أكثر من أربعة آلاف عام، واســتعان بهــم الفراعنة فــى الدفــاع عن الوطــن، ولفظ «بجــا» يعنــى «المقاتل القوى الشجاع» !

ومن أهم فروع البجا:

١ - الهدندوه

٢ - الأمرأ

٣ - الحلانقة

٤ - بنى عامر

٥ - العبابدة

٦ - البشارية

وتنتشـر الفروع الأربعة الأولى من قبائل البجا فى السودان، وأثيوبيا؛ فيما ينتشـر الفرعان الأخيران فى السودان ومصر، ويتحدث العبابدة اللغة العربية التى تتضمن بعض المفردات البيجاوية، أما البشـارية فيتحدثون اللغة البيجاوية «الرطانة» .. وقليل منهم يتحدث العربية مع البيجاوية.

وتنقسم قبيلة «البشارية» إلى فروع أهمها: الحمادوراب، العلياب، الأمراء، الشنتيرات، ويسكنون الصحراء الشرقية، أما قبيلة «العبابدة» فينقسمون إلى بطون أهمها: الشناتير، العبوديون، المليكاب، العكارمة، «العشباب» ، وقد اندمجت قبيلة العبابدة مع سكان وادى النيل، ماعدا «العشـباب» الذين يعيشـون فى الصحراء الشرقية، من القصير إلى آخر حدود مصر مع السودان.

أمـا قبيلـة «الرشـايدة» .. فهى غير معـترف بها على المسـتوى الرسمـى. مـن حيث الحقـوق والواجبـات، وهم يعيشـون بمعزل عن البشارية والعبابدة، وهم لا يمتهنون الصيد، وزيارتهم لمدينة الشلاتين تتم بتصاريـح، ولعدة أيام، ثم يعودون إلى خيامهم، ويعملون بالتجارة

والرعي، وترجع أصولهم إلى أصول ســعودية تنتمى إلى آل رشيد، وقد نزحت إلى مصر عندما تولى آل سعود الحكم.

ولم تختلط قبيلة الرشــايدة مع الشــعوب الأفريقية، ولم تتأثر بهم فى الملامح الجسدية مثل لون البشرة والعيون والشعر الأسود المسترسل، ولا تتمتع القبيلة بالحقوق التى يتمتع بها قبيلتا العبابدة والبشــارية، لكن يقدم لأفرادها - بواســطة الوحدة المحلية - الخدمات الإنســانية وتصاريح الإقامة، لأهداف سياسية.!

وتواجه قبيلة الرشايدة مشكلات منها:

- ❑ عدم التمتع بحرية الانتقال كغيرهم.
- ❑ عدم وجود بطاقات إثبات شخصية لأفرادها.
- ❑ عدم توفر الكهرباء أو مياه الشرب مع نقص الرعاية الصحية!

(٤)

وتنتسب قبيلة البشــارية إلى جدهم «بشار بن كاهل» ويرجع نسبه إلى قبيلة «الكواهلة» التى تنحدر من نســل الزبير بن العوام، وقد تزوج بشــار من امرأتين من «البجــا» .. الأولى: «أم ناجى» والثانية «أم على» .. وهم أولاد عم العبابدة، ومنذ أيام هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم صاروا قبيلتين منفصلتين.

وتنقسم قبائل البشارية إلى قسمين :

١ - بشارية أم ناجي.

٢ - بشارية أم علي.

ويسكن بشــارية أم على شمال خط ٢٢، وأهم فروعهم «الشنتيراب» ولفظ «آب» يعنى «الانحدار من الجنوب» .. أما بشارية أم ناجى فيسكنون بعد خط ٢٢ داخل السودان ووسطه.. أما جنوب الشلاتين حتى خط عرض ٢٢ على ساحل البحر الأحمر، فيسكنها قبائل الحمد أوراب.

وقد نزحت قبائل البشارية من الجزيرة العربية - فى وقت مبكر - إلى الســاحل الأفريقى، وقد اختلطوا بالزنوج، وتزوجوا منهم، وأخذوا عنهــم لغة «البجا» .. ولأنــه لا توجد مواصلات بين أجزاء المثلث، فقد انغلقوا على أنفســهم، وكونوا جماعات منغلقة، يتحدثون لغة البجا، ومع مرور الأيــام، اندثرت اللغة العربية، وصاروا لا يتكلمون ســوى اللغــة الزنجية، أو لغة البجا.. وتذكر حكايات التاريخ أن البشــارية هم «حراس الذهب» منذ أيام الفراعنة!.

(٥)

وفى المشــهد العــام تبدو الصحــراء الشاســعة - لأول وهلة - كما لــو أنها تفتــح ذراعيها لأى قادم إليها، ليقيم عشــوائيا فى أى مكان، أو ليدعــى ملكية من يشــاء، خصوصا أنه لا يلوح فــى الأفق أى مظهر من مظاهــر الملكية الخاصة! .. غير أنه بالنظرة المتأنية يتضح أن الأمر مختلــف إلى حد بعيــد، فمناطق الإقامــة والرعى فى تلــك الصحراء، وإن كانــت عرضة باســتمرار للتغــير، بانتقال قاطنيهــا، يراعى عند اختيارهــا عدة اعتبارات، تعود أغلبهــا إلى الظروف البيئية والعوامل الطبيعية، ويعود البعض الآخر إلى عوامل اجتماعية وظروف سياسية،

وكلها عوامل يدركها البدوى جيـداً، باعتبارها تراثا حضاريا ينحدر إليه عبر الأسلاف.

ولكى يقيم البدوى مسـكنه المؤقت أو شبه الدائم، الذى يتألف عادة من بيت من الشـعر، أو من الجدائل النباتيـة، أو من الصفيح، ينبغى أن يختار موقعا منبسـطا على ربوة عالية، على حافة الوادى الجبلى، أو علـى مصطبة أحد الأوديـة الفرعية، وذلك تفاديا لمخاطر السـيول الجارفـة والمفاجئة مـن ناحية، وابتعـادا عن مناطق زحـف الكثبان الرملية من جانب آخر، فضلا عن أن اختيار الموقع يجب أن يكون قريبا مـن مصادر الميـاه الطبيعية المتمثلة فى الآبـار، وإن كانت الإبل ترعى فى مساحات واسعة، وبالأيام، وتعود من تلقاء نفسها إلى أصحابها.

فضلا عن ذلك، وفى الوقـت الراهن، وطبقا لدواعى الأمن، والظروف السياسـية التى تحكـم العلاقات المصرية السـودانية، وما نجم عنها من مواقـف غير طبيعيـة، فإنه ينبغى عند اختيار الموقـع للإقامة والرعى، أو لكليهما، خصوصا فى المناطق القريبة من الحدود الفاصلة بين البلدين، أن تتم بالتنسيق مع قوات الأمن وحرس الحدود العاملة فى تلك المناطق.

ويشـاهد فى الأماكن الحضارية التقليدية فى الشلاتين، أبو رماد، حلايـب، بعض المظاهر المصريـة المتمثلة فى المنـازل النمطية والطرق المخططـة، ويمكـن أن نطلق عليها مجازا «قريـة» .. وتتكون كل قرية أو حلـة «أى حـى» من عدد مـن العائلات الكبـيرة أو «البدنات» التى تقوم على نظام الانتسـاب فى خط واحد، وهـو دائما «الخط الأبوى»..

فكل جماعــة يرتبط أعضاؤها ببعض، بروابط الــدم العاصبة، أى إنهم ينحدرون فى خط الذكور من ســلف مشــترك تعــرف جماعته باسمه. مثل عائلــة «الفرحانات» فى الشــلاتين، والشــويمات والجامعات فى أبو رماد.

وتتماثل مســاكن العبابدة مع البشارية إلى حد كبير، فحياة البداوة تتطلب أن يكون المســكن بسيطا، يسهل حله من وقت لآخر، ومن مكان إلى مــكان، وهى تتكون من الخيام المصنوعــة من الحصير المجدول من ســعف النخيل، وبعض من القماش الســميك، أو الخيش، وأحيانا من صــوف الغنم أو جلد الماعــز، أو وبر الإبل، ويختــارون إقامتها بعيدا عن مخرات الســيول.. ومن عاداتهم ألا تكون أكواخهم ملاصقة لأكواخ الآخرين.

والطريف.. أن النســاء هن المسئولات عن تجهيز الخيمة من معظم الخامــات التى تصنع منها، والمنقولات التــى تحتويها، وعليهن أثناء تجوالهــن بحيواناتهن الصغيرة أن يجمعن فروع الأشــجار المناســبة، والأعشــاب الجافة اللازمة لعمل الهيكل الذى يقيمه الرجال، وهذا هو الإسهام الوحيد لهم!

كذلك، فإن النساء يجدلن الحصير، وينسجن الأقمشة؛ ويضفرن الحبال، وهن يقمن بتغطية هيكل الخيام من الخارج وكسوته من الداخل.

وينتشــر الزواج بــين العبابدة والبشــارية. حتــى يتفاعل كل من القبيلتين مع الآخر، فدائما زواج البنت من ابن عمها، أو أحد أقاربها،

ويتم هذا الزواج بناء على اختيار «الأب» للعروس، عند بلوغ الابن سن السادسة عشرة، والفتاة نفس السن.

واختيار الأب للعروس، هو عرف سائد لدى شباب القبيلة، ويستمر معهـا، فإن لم يحدث تفاعل بين الاثنين، يتركها ويتزوج غيرها، لكن في هذه المرة، تكون من اختياره هو!

وتقاليد الزواج تتناسـب مع الحالة الاقتصادية والجغرافية، فالمهر الذى يدفع للعروس «ناقتان» يقدمهما والد العريس. واحدة «مقدم صداق» والثانيــة «مؤخــر» .. وحين يتم الاتفاق لا توجد فـترة خطوبة، وتبدأ مراسـم الزواج، بعــش الزوجية ويكون على شــكل خيمة، بها بعض الأغطية من الصوف وجلد الحيوان، ويســتمر الفرح سبعة أيام، ولضيق ذات اليد، يكتفى بثلاثة أيام هى «الخميس والجمعة والسبت» .

ويسجل عقد الزواج شيخ القبيلة، ومن العرف السائد إقامة العريس عند أهل العروس «ســنة كاملة» حتى تنجـب طفلها الأول، ثم تذهب معــه إلى قبيلته، أما إذا تأخر الإنجاب، فيتــزوج غيرها، لذلك يمثل تعدد الزوجات نحو ٦٥ بالمائة من حالات الزواج!

(٦)

والحدود المصرية - الســودانية، تحتل فصــولا فى تاريخ الحدود، والمدهــش أن الحديث عن الحدود بين البلديــن قبل أول يناير ١٩٥٦ .. كان يعــد دربا مــن دروب الخيانة الوطنية، باعتبــار أن وادى النيل، يمثل وحدة واحدة شمالا وجنوبا.

لكن ذلـك لا يمنع من الإقرار بحقيقة أن الحـدود كانت موجودة، ومنذ زمن بعيد، ويروى أسـتاذ التاريخ يونان لبيب رزق القصة بقوله: «تصور غير صحيح ذلك السائد بين جموع الباحثين فى شئون العلاقات المصريـة السـودانية أن اتفاقية ١٩ ينايـر ١٨٩٩، بين مصر و انجلترا هـى التى وضعت خط عرض ٢٢ شمـالا كحدود بين البلدين، فقبل ذلك كان هنـاك خط آخر لتلك الحدود بين عرض كامل، وعلى وجه التحديد ٥٥ من ٦٠ من خط العرض، ولصالح مصر» .

يضيف: «وقبل ذلك بنحو خمسـين سـنة، وتحديدا فى ١٣ فبراير ١٨٤١ ظهرت على الخرائط أول حدود بين البلدين، وهى حدود ارتبطت بالتسـوية الشـهيرة التى تمت بين القاهرة واسـتنبول» .. ومعروف تاريخيا أن هذه التسوية تمت على مرحلتين. مؤتمر لندن ١٨٤٠ والذى وضعـت فيه الدول الكبرى الخطوط الأساسـية، وفرمـان الباب العالى الصادر فى ١٣ فبراير ١٨٤١، والذى جسد قرارات مؤتمر لندن» .

وجاء فى الفرمان فيما يخص السـودان القول بأن: «سـدتنا قد ثبتتكم علـى ولاية مصر بطريـق التوارث بشـروط معلومة وحـدود معينة، وقد قلدتكـم فضلا عن ولاية مصر، ولايات مقاطعات النوبة والدارفور وكردفان وسـنار وجميع توابعها وملحقاتها الخارجة، ولكـن بغير حق التوارث، فبقوة الاختيار والحكمة و التى امتزتم بها، تقومون بإدارة هذه المقاطعات وترتيب شئونها بما يوافق عدالتنا وتوفير الأسباب الآيلة لسعادة الأهلين،

وترسلون كل سنة قائمة إلى بابنا العالى حاوية بيان الإيرادات السنوية جميعها» .

ويفسر د. يونان هذا الفرمان بقوله: «وإذا كان هذا الفرمان الشهير لم يشر إلى حدود مصرية سودانية، فلم يكن جنوب الوادى حتى ذلك الوقت قد أطلق عليه السودان، وإنما كان ينظر إليه باعتباره مقاطعات ملحقة بمصر، فإنه أشار إلى حدوده الأخيرة، أو ماكان يعرف وقتئذ بمصر الأصلية، والأكثر من ذلك أن الباب العالى ألحق بالفرمان خريطة تبين هذه الحدود» .

وتؤكد الحقائق التاريخية أن وادى حلفا استمر قبل عام ١٨٩٩ سواء على المستوى العسكرى، أم الصعيد السياسى داخل نطاق أراضى «مصر الأصلية»، حتى جاءت اتفاقية ١٨٤١، وزحزحت خط الحدود إلى ٢٢ درجة شمالا، وبينما كان وادى حلفا يمثل أولى نقاط مصر الجنوبية على نهر النيل؛ فقد كانت «حلايب» تمثل أولى النقاط على البحر الأحمر.

ويرصد د. يونان ما نشرته صحيفة الأهرام من أخبار ما بين شهر أبريل ١٨٨٨ ومايو ١٨٨٩، فقد حدث أن أرسل المهديون السودانيون قوة لهم لاحتلال آبار حلايب، ولم تكن مصر تعول كثيرا على هذا التصرف، لو أنها ارتأت أن تلك الآبار تقع جنوب خطوط «مصر الأصلية» .. وقد قوبلت محاولة الاحتلال المهدوى بإجراء عسكرى مصرى عاجل، حيث بعث السردار بقوة عسكرية اشتركت مع بشير بك شيخ قبيلة العبابدة لطرد المهديين من المنطقة، وتنظيفها منهم - على حد تعبير

الأهرام - وإذا كانت هذه المبادرة العاجلة تدل على فهم مصر، باعتبار حلايب مصرية، فإن الإجراءات جاءت فى ثلاثة أخبار:

١ - فى ١٠ مايو ١٨٨٩ : «جاء من حضرة الكولونيل هولد سميث فى سواكن، أن طابية حلايب، وهى بلدة تبعد نحو ٢٠٠ ميل من سواكن سيتم بناؤها بعد سبعة أيام، أما الدراويش - ويقصد المهديون - الذين كانوا يحاولون الهجوم على تلك الأنحاء، فقد تأخروا عنها، واتخذوا لهم مركزا فى نقطة تبعد عن حلايب بنحو عشرين ميلا، إلا إنه يخشى أن يعاودوا الكرة فى الجهات المذكورة، أما قبيلة البشاريين فمنتشرة فى طلب المرعى.

٢ - والخبر الثانى نشر فى ٢٩ مايو ١٨٨٩ ونصه: «ارتأى سعادتلو هولد سميث باشا قومندان سواحل البحر الأحمر بوجوب مساعدة سكان قرية حلايب مما يسد عوزهم إلى أمد قليل، ويمكنهم من القيام بالأعمال المساعدة فى الكسب، وذلك على إثر ما أصابهم من المضار والفاقة فى الموقعة التى جرت بينهم وبين الدراويش» .

٣ - ونشر فى ٣١ مايو .. وجاء فيه : «قرر سعادتلو سردار الجيش المصرى بأن قبيلة البشارية القاطنة جهة حلايب، بلدة بقرب سواحل البحر الأحمر، حفاة عراة، لا يملكون قوت يومهم، وأن حالتهم هذه تستدعى شفقة الحكومة عليهم ومساعدتها لهم، وارتأى أن يتاح لسعادته إنفاق مبلغ ٢٠٠ جنيه فى الطرق الضامنة سد عوزهم إلى أجل محدود، وقد عرض قراره على مجلس النظار، فأجاب قراره» . !

ويعلــق د. يونــان لبيب رزق على الأخبار الثلاثــة بقوله: «وفضلا عمــا تضمنته هــذه الأخبار من التأكيــد على تبعية قبائل البشــاريين لمصر، بحربهم ضــد الدراويش، وبطلب المعونة مــن حكومة القاهرة، فإنها قدمت كل البراهين القانونية التى أكدت على مصرية هذا الميناء، وتلك المنطقة من خلال ممارسة شتى ألوان السيادة عليها» .

يضيف: «وفى حالة حلايب - تحديدا - فإن أفخاذ قبيلة البشارية الواقعة شمال خط ٢٢ تتنوع روابطها بمصر، أكثر مما ترتبط بالسودان، والكلام من وثيقة بريطانية تتحدث عن بدنات البشــارية المقيمة شمال خط ٢٢ .. وهى على النحو التالى:

□ جــاء عــن بدنة «الحمــادوراب» .. أن لهم علاقــات متنوعة مع العبابدة فى مصر، ويتصاهرون معهم كثيرا، ولهم قرى دائمة فى أسوان ودراو وغيرها من الأماكن على النيل.

□ الأليــاب.. وجــاء عنهم أن لهم نفس الروابط مــع العبابدة التى للحمادوراب.

□ الأمراب.. وجاء فيهم أن لهم علاقات واضحة مع أســواق جنوب مصر، ولم يبق بعد ذلك غير الشــانتيراب الذين جاء عنهم فى الوثيقة «أنهم يتنقلون عبر خط ٢٢ لأغراض قبلية» .

ويصل د. يونان إلى نتيجة مفادها: «لعل ما جاء فى هذه الوثيقة يشير إلى حقيقــة لم نكن ندريها من قبل، وهى أن الترتيبات الإدارية لم تتم لأســباب بشرية متعلقة بمصلحة أبناء القبائل المقيمين شمال خط ٢٢..

بقدر ما تمت لأسـباب إدارية تتصل برغبة حكام الخرطوم البريطانيين في التعامل مع ناظر واحد للبشارية الذين آثروا أن يضعوهم جميعا في سلة إدارية واحدة» .!

(٧)

ويمتلك د. «السيد فليفل» صورة ذهنية عامة ترى أنه منذ أن وطئت أقدام المستعمرين أرض السودان، سعوا جاهدين إلى فصله عن مصر، وهو ما ظهر جليا في اتفاق الحكم الثنائي ١٨٩٩، حيث ظهر خط ٢٢، كخط فاصل بين كياني وادى النيل - مصر والسودان - وقد تتابعت الإجراءات البريطانية الساعية إلى تأكيد هذا الاتجاه.

ويعدد فليفل الإجراءات بقوله: تقليص عربي الاتصال بين الجانبين إلى أدنى مستوى ممكن، التضييق على التجار من الجانبين إذا ما سعوا إلى الاتصال، استخدام مقاسات مختلفة لخطوط السكك الحديدية، تأسيس كلية جوردن التذكارية بالخرطوم وجعل التعليم فيها باللغة الانجليزية، وهو ما أفرز صفوة سودانية جديدة راحت تبحث - بمقتضى الارتباط الثقافي بالانجليز - عن مستقبل للسودان بشكل منفصل.

ويرى د. «محمود أبو العنين» أن النزاع حول مثلث حلايب والشلاتين ارتبط بعاملين أساسيين الأول يتمثل في استقلال السودان عام ١٩٥٦، بعد نحو قرن وثلث من الارتباط السياسي بمصر، والثاني تظهر آثاره مع الأزمات المختلفة التي اعترت مسيرة العلاقات المصرية

الســودانية.. ويشير إلى إنه على مدار ١٣٦ سنة منذ أن فتح محمد على السـودان، وحتى اســتقلاله لم ينظر المصريون إلى السودان إلا من خلال منظور وحدوى، ســواء أن السودان جزء من الدولة المصرية أم بمصطلح وادى النيل، وقد شــارك كثير من الســودانيين فى هذه النظرة، بالرغم من الفترة الاستثنائية للثورة المهدية فى السودان.

أما فيما يتعلق بمثلث حلايــب.. فتذكر الحقائق التاريخية الموثقة أنه نشأ بمقتضى قرار وزير الداخلية المصرى الصادر فى ٤/ ١١/ ١٩٠٢، وطبقا لهذا القرار، تم وضع المنطقة الواقعة فى الركن الجنوبى الشــرقى لمصــر، والمحاذية لســاحل البحر الأحمر «منطقة جبــل علبه أو مثلث حلايب» تحت إدارة المحليات الســودانية بغرض توحيد إدارة شــئون القبائــل، ولم شمل جماعة البشــارية المصرية، مع كتلتهم الرئيســية الواقعة داخل الجانب السودانى.

ووفقا لهذا التعديل الإدارى، تم تحديد مناطق البدو فى الإقليم لتضم ما يعــرف بمثلث حلايب المصرى، وقاعدته تقــع على خط ٢٢ شمالا، وطوله نحو ٣٠٠ كم، وضلعه الشــرقى يقع على ســاحل البحر الأحمر بطول ٢٠٠ كم، بحيــث يبدأ من جنوب حلايب على خط الحدود حتى بئر الشــلاتين فى الشــمال، أما الضلع الغربى، فهو متعرج، لكن على شــكل خطوط مستقيمة تقريبا، حيث يمر الخط ببئر «منيجة» ثم جبل «تجروب» .. ثم جبل «أم الطيور» فجبل «الديجا» .. حتى يصل إلى خط التقاطع مع خط الحدود السياسية.

- والمثلث الذى يشــكل قيام حلايب، يبلغ وفــق التحديد ١٨ ألف كيلو مترا وهى مســاحة تقارب مســاحة دلتا النيل، كما يمتلك جبهة بحرية على ساحل البحر الأحمر بطول ٢٠٠ كم، مواجهة تقريبا لمنطقة الحجاز بالسعودية. ويقدر عدد سكانه وفق إحصاء ١٩٩٧ نحو ١٣,١١٨ نســمة ينتمون إلى قبائل البشــارية والعبابدة، وأعــداد قليلة من قبائل أخرى، ويشكل البشاريون نحو ٧٠٪ من السكان.

- مثلــث جبل «بارتازوجا» .. وقد نشــأ بمقتضــى القرار الإدارى لوزيــر الداخلية المصــرى فى ٤ /١١/ ١٩٠٢. وإعمــالا على نفس المبدأ القائــم على فكــرة توحيد القبائل، حيــث تقرر وضع قبائــل العبابدة التى تعيــش جنوب خط ٢٢ شمالا لنفس النظــام الإدارى المصرى التى تخضع لهم كتلتهم الرئيســية التى تعيش على الجانب المصرى من خط الحدود.

وهذه المنطقة تقع غرب مثلث حلايب على الجانب السودانى وتشكل جيبــا داخليا حبيســا داخل الصحراء، مســاحته غــير دقيقة، لكنها تقترب من تُســع مثلــث حلايب، وتعتبر منطقــة جبلية وعرة، حيث تبــدأ عندها فــروع وادى العلاقى، وتقطنها غالبية مــن قبائل العبابدة ذات الأصول المصرية.

(٨)

كنــت فى الخرطوم، عندما صرح الرئيس الســودانى عمر البشــير لصحيفة خليجية فى شهر أغسطس ٢٠٠٢ بأن «مثلث حلايب سودانى،

وأن الأمــر برمته معروض في مجلس الأمن» وقتئذ سمعت تفســيرين، أحدهما دبلوماسى من الدكتور مصطفى عثمان وزير الخارجية بأن الأمر لا يســتحق زوبعة، وربما أرادت الصحيفة «إشــعال الموقف» فطرحت المســألة على هذا النحو.. نحن - والكلام لعثمان - نريد منطقة المثلث، منطقــة تكامل، ودافع بشــدة عــن وجهة نظر البشــير التى تصب فى ذات الاتجاه.

أمــا التفســير الثانى.. فســمعته مــن بعض المحللين السياســيين الســودانيين الوحدويــين.. بأنــه تآمــر أمريكــى علــى العلاقــات المصرية - السودانية، واســتغلال للموقف المصرى من اتفاق مشاكوس الذى وقع بين النظام السودانى والحركة الشعبية، لأن وجهة نظر مصر كانت تأخذ بالحل الشامل وعدم استبعاد أو إقصاء أى قوى سودانية من هذه القضية.

وقــد ارتبــط النــزاع على الحــدود فى مثلــث حلايــب، بأزمات العلاقات المصرية الســودانية، وفترات التوتر بعد اســتقلال الســودان عــام ١٩٥٦، فقد قــادت حكومة الثورة فى مصر - كمــا يقول الباحث د. محمــود أبو العينين - مفاوضات صعبة مــع الجانب البريطانى من أجل تحقيق الجلاء عن وادى النيل كله، ســواء فى مصر أم الســودان، وتم البدء بالســودان، حيث انتهت المفاوضات بتوقيع اتفاقية السودان فى ١٢ فبرايــر ١٩٥٣، وأعقبها الوصــول إلى اتفاقية الجلاء فى مصر فى ١٩ أكتوبر ١٩٥٤.

غير أن الملابسات التى أحاطت بعملية تقرير المصير فى السودان، وما صاحبها من هجمات إعلامية متبادلة بين البلدين، وما أسفرت عنه من تصميم السودانيين على الاستقلال، وتخلى الاتحاديين عن مبدأهم وهو الاتحاد مع مصر.. كل هذه الأوضاع ساهمت فى تبديد أحلام وحدة وادى النيل.. ومع رصد الأزمات صعودا وخمودا نرى:

١ - ينشب النزاع ويتصاعد فى حالة وصول حكومات سودانية مناوئة لمصر، ونرصد حكومة عبد الله خليل وحزب الأمة ١٩٥٨، ووصول الجبهة الإسلامية للحكم عقب انقلاب يونيو ١٩٨٩.

٢ - يخمد النزاع حول حلايب فى فترات استقرار العلاقات.

٣ - فى كل الحالات.. تسعى مصر وهى تدير النزاع إلى عدم تدويله، والسيطرة عليه وضبطه فى الإطار الثنائى، حفاظا على خصوصية العلاقة بين البلدين.

(٩)

وأنقل شهادتين

هما تأكيد على هذا التلاحم المصرى السودانى، وتأكيد فى المنظور السياسى والحدودى على مصرية حلايب وشلاتين.

الأولى: لسفير السودان السابق فى مصر أحمد نور، والتى اعترف بها فى «ندوة الحدود المصرية السودانية بالقاهرة عام ١٩٩٧» وهى تفيض رقة وحميمية، هى طابع السودانيين الوحدويين.

يقول: «أشـعر بحساسية بالغة عندما أتحدث فى موضوع الحدود، لا سـيما وأنـا أقيم فى قرية على الحدود، يقـع نصفها شمال خط ٢٢، ونصفهـا الثانى فى جنوبه! .. وعلى رغم هذه الحساسـية فقد أخذت مـن كلا البلدين خيرها وإيجابياتها، فقد تعلمت فى مصر، عندما كان التعليم فيها منارا للعالم الإسلامى، واشتغلت فى السودان، عندما كان العمل فيها هدفا لكل مصرى وسودانى» .

يضيف: «هذه ليست انتهازية، لأننى لازلت أعتبر مصر والسودان بلـدا واحدا، ولا شـك أننى عانيت من ذلك، وأعتقد أن وجود السـكان والقبائل فى مناطق الحدود يساعد على الاستقرار» .

أما الشهادة الثانية، فصاحبها رجل سودانى جميل، جاب السودان شرقه وغربه وجنوبه وشماله كرجل تعليم، لكنه استقر فى عام ١٩٩٠ فى المثلث، ويدير مدرسة ابتدائية فى «أبو رماد» ولم يبرح المنطقة منذ ذلك التاريخ.

هو فنان تشكيلى فطرى.

أسأله: هل أنت سودانى؟

يجيب: لا

أعاود السؤال، وهل أنت مصرى؟

يقول: لا

إذن.. أنت من؟

يقول الفاضل خالد أشـــهر «معلم» فى المثلث فى العقدين الأخيرين، أنـــا ابن هـــذه المنطقة، أعلـــم أبناءهـــا، الذين تخرج فيـــه الكثيرون، وعادوا ليعملوا معى فى المدرســـة، أنا مصرى ســـودانى، أو قل سودانى مصـــرى، أقترب من الســـتين، اخترت الحياة فى هـــذه المنطقة الأثيرة إلى نفســـى وعقلى، أرســـم عندما تتاح الظروف، درست التاريخ جيدا، وخرجـــت بنتيجة: أننى من هنا، وأولادى هنا، بالرغم من أننى ولدت وسط السودان!

..

يبقى القول:

هذه أرض أجدادى.. ومفتاح الحل لأحفادى. !

الأقصر: الحياة والخلود

يرن في أذني قول د. سمير فرج رئيس مدينة الأقصر - هاتفيا - نحن أولى بتاريخنا، بتراثنا، وأحق بحضارتنا.

ونفس الجمل القاطعة التى تحمل معنى التحدى، أسمعها من عاشق الأقصر الفتى الشاعر أحمد فؤاد جويلي. وكأنهما اتفقا على هذه الحماية المستغرقة فى حب هذه الأرض، حتى وإن كانت نزعتهما شديدة الشوفينية، هنا المهم الوعى بالتاريخ، بالأرض، والأكثر بالوطن.

حزمت أمرى للسفر إلى الأقصر، مدينة الحياة والموت، والأكثر شمسا وخلودا، وكنت قد زرتها خلال الشهور الخمسة الماضية ثلاث مرات، لكن هذه المرة تكون الزيارة مع سبق الإصرار والترصد، للتعامل التاريخى والمستقبلى مع المدنية، الناس، الأرض، الأثر.

وأذكر، وأتذكر، أول زيارة لى للأقصر فى شتاء ١٩٦٥، عندما كنت طالبا بمدرسة المنصورة الثانوية، وكان ضمن منهج الدراسة - حينذاك - زيارة الأقصر وأسوان، وذلك لتنشيط الذاكرة التاريخية، وخلق حالة الانتماء لهذا الوطن.

وأتذكر دموع جدتى، وهى تثنينى عن هذه الرحلة، لأننى سأغيب عنها لأول مرة خمسة عشر يوما، «أكيد، أكيد ياولدى المشوار طويل، والبلاد بعيدة، وأنت مازلت صغيرا، تبكى بدموع حارة، وتقسم بغربتى».!

فى حين شــدت من أزرى أمى، وقالت لجدتى : «يا خالتى، خليه يشوف الدنيا.. ويتعلم» !

تذكرت هذا المشــهد العاطفى وأنا على متن الطائرة، وشــتان ما بين الزمان ووســيلة الســفر، منذ أربعة عقود كانت الرحلة تســتغرق من المنصــورة إلى الأقصر نحو أربعة وعشــرين ســاعة، والآن بين القاهرة ومحطة وصولى.. ساعة!

يوقظنى من غفوتى وذكرياتى صوت احتكاك عجلات الطائرة بأرض مطار الأقصر، وتأهب كل ألوان البشر لمغادرة الطائرة.

(١)

يواجهنى شــروق الشمس، إنه صباح جديد يطل على مدينة الحياة والموت.. لقد بعثت فىَّ الشمس الحياة، وفى لحظات الإشراق، يستشعر الإنسان جمال الصباح المنتصر للحياة.

وشروق الشــمس وغروبها فى الأقصر يمثل نقطة التقاء بين سلسلة ثقافــات دينية ثلاث، فغروب الشــمس فى عالم الأمــوات يمثل ثقافة الديانة المصرية القديمة، وعودة الشــمس مــن رحلتها الغاربة، تعنى بعث الدفء والحياة، وهى تمثل فى العقيدة المســيحية «عودة المخلص» .. أمــا فى الثقافة الإســلامية، فالمــوت والحياة ربط بــين ما هو باق، وما هو زائل، إنها تعادل الزمن التاريخى مع الزمن الكونى.

اللحظة

لحظة الشروق

والشـعور تحديدا: مع وهج النور الشفاف، تجسد الجمال، والأفق الخالد بالأقصر امتد فوقه حركة الشـمس، ويقطعـه النهر المتدفق فى لحظة الشروق!

وتتقاطع مع اللحظة الشـاعرة، واللقطة السـاحرة المبشرة بالحياة، مع شـروق شمس يوم جديد فـى الأقصر حال وصولى.. صوت الشـاعر جويلى، وقوله:

من التراب أقلع الشجر
وأقلعت حقول
أتى المزارعون
مضى ربيع لدحهم إلى الافول
وغاصت الجذور نحو باطن.. الثرى
وينجلى الجدار عن نقوش قارة جديدة من النخيل والسنابل
وطار – فى النقوش – سرب طير
وجاء صوته مموسقا.. مغردا
لك الجمال أيها الوريث
لك الجمال...

(٢)

وتبـدأ تباشـير الرحلة من اتصالـين هاتفيين لسـمير فرج وأحمد جويلى حول هذه الحملة المسـتعرة فى الإعلام الفرنسـى، وكأن قدرنا أن «نكون رد فعل» !

الحملة تهاجم مشروع تطوير الساحة الأمامية لمعابد الكرنك حيث حولتها العشوائيات إلى بؤر من الإهمال، وتهاجم - أيضا - ما يحدث في البر الغربي، وتصف من سيتم نقلهم إلى مساكن جديدة بها مياه وكهرباء بأنه «تهجير» .

حملة الفرنسيين في الميديا الفرنسية، ظاهرها الرحمة، وباطنها التضليل.

في الظاهر حماية الآثار المصرية باعتبارها تراثا إنسانيا عالميا.

والباطن.. مصالح البعثة الفرنسية في الأقصر، حيث تحتل مساكنهم أهم وأجمل بقعة على النيل، في مواجهة الدير البحري، وتغلق الطريق على معابد الكرنك في رؤيته للبر الغربي، والدير البحري، وتقف حجر عثرة أمام الرؤية المقدسة لمساكن الأموات.

ونقطة البداية في التطوير الدراسة التي أعدها البرنامج الإنمائي للأمم المتحدة - والتي تستهدف التخطيط المستقبلي المتكامل لمدينة الأقصر حتى عام ٢٠٣٠ بأبعاده الثقافية والاقتصادية والسياحية، وبحث متطلبات المدينة واحتياجاتها المستقبلية على عدة مراحل.

ومن أهم بنود هذه الدراسة تفريغ المناطق الأثرية من العشوائيات المنتشرة فوقها وبجوارها، خاصة وأن الأقصر مقامة على مدن أثرية كاملة لأقدم حضارة عرفها الإنسان، وتستهدف الخطة - كما يقول د. سمير فرج - إعداد المدينة كمتحف مفتوح.

ظلت الدراسة حبيسة الأدراج سبعة أعوام لعدم وجود موارد مالية، خاصة أن تكاليف تنفيذها يصل إلى سبعة مليارات جنيه.

بدأ سمير فـــرج - بإرادة المقاتل وروح الفنـــان - فى إزاحة التراب عن هـــذه الخطة بعد أن عرضها على رئيس الـــوزراء د. أحمد نظيف، ومع تحمسه بدأ فى إزالة عشوائيات وفقا للقرارات الإدارية التى كانت متجمدة، لا ســـيما وأن القرار الجمهورى رقم ٢٥٣ لسنة ١٩٨٩ يعتبر «الأقصر مدينة ذات طابع خاص» .

بدأت حركة التطوير تـــدور مع حماس سمير فرج، وكان فى قلبها «تطوير الســـاحة الأمامية لمعابد الكرنك» التى تستهدف إعادة الكرنك إلى ما كان عليه قبل خمســـة آلاف عام.. وباعتبار أن الفرعون كان يقف فى بهو الكرنك ســـاعة الغروب ليطل مباشرة على معبد الدير البحرى فى البر الغربى عبر نهر النيل.

واقتضى الأمر شجاعة إزالة ما يقف أمام بهو الكرنك، وبالتالى، فقد تمـــت إزالة المبانى الإدارية فى المنطقـــة، منها: تفتيش الآثار، ومبنى الصوت والضوء، ومركز الشباب، ومدرسة إعدادية، واستراحة لموظفى هيئـــة الآثـــار، إضافة إلى ٤٨ منزلا ومحلا عشـــوائيا تقـــع جميعها فى مواجهة المعابد، وتعوق الرؤية.. وقد تمت إزالة ٤٢ بازارا ومنزلا.

ومطلـــوب أيضا.. إزالة مركز شـــرطة الأقصر، ومســـجد وكنيســـة وقصر الثقافة، ومساكن البعثة الفرنسية التى تسمى «القرية الفرنسية»

والتى تقع على النيل مباشرة وتحجب الرؤية عن معابد الكرنك، فضلا عن منزل الأثرى الفرنسى جورج لوجران المتوفى عام ١٩١٧.

وعند قيام المجلس الأعلى لمدينة الأقصر بطلب إزالة المساكن المصرية التى يقيم فيها الفرنسيون فضلا عن منزل لوجران.

قامت الدنيا ولم تقعد. !

رفض الفرنسيون بشكل قاطع الإزالة، لأن منازلهم مقامة على النيل مباشرة، ورفضوا جملة وتفصيلا مشروع التطوير، وصوروا الأمر فى الميديا الفرنسية على أنه استيلاء على الأملاك الفرنسية، بالرغم من أنها مصرية مائة بالمائة! وقالوا لسمير فرج الذى نقل لى الحكاية بمرارة «البيوت موجودة منذ سنين.. لماذا تريدون - الآن - إزالتها» . !

كما رفض الأثريون الفرنسيون «من باب الوصاية» إزالة المساكن العشوائية المقامة فوق مقابر الأشراف والتى تصل إلى ٦٠٠ مقبرة بمنطقة القرنة بالبر الغربى. !

وتتوالى الحملة المسعورة، ويتم استعداء اليونسكو على مصر، وآثار مصر، وعلى سيادة مصر. !!

وتصل رسالة إلى رئيس هيئة الآثار المصرية د. زاهى حواس من اليونسكو مفادها بأن ما يحدث فى الأقصر يضر بالآثار المصرية التى هى ضمن التراث العالمى الإنسانى.! .. ولأن زاهى حواس مصرى ينتمى فكرا وقلبا وعقلا إلى مصر.. فقد كان رده قاسيا «بنينا حضارتنا

منذ سبعة آلاف عام، ونعرف جيدا كيف نصونها، ونعتز بها، ونحافظ عليها» !

تتواصل الحملة وتشتعل حول بيت الأثرى الفرنسى جورج لوجران، وقد تم تشييده على ضفاف معبد الكرنك عام ١٩١٦.. وكان لوجران - الذى توفى عام ١٩١٧ بالأقصر - ونقل جثمانه إلى القاهرة ليدفن فيها - قد عمل مفتشا للآثار المصرية مع بداية القرن العشرين، وقد اعتبر الفرنسيون المحدثون هذا البيت «أثرا» .. ويذكر هنا الجهود الكبيرة التى بذلها لوجران فى عمليات استكشافية كان لها نتائجها الهامة فى البحث عن الآثار المصرية، وسجل اسمه فى تاريخ الإنسانية، وهذا أمر لا ينكره الأثريون المصريون.

فضلا عن أن البيوت التى يسكنها الفرنسيون والتى شيدت فى العام ١٩٦٧، أقيمت «خطأ» على الميناء النهرى الذى كان يربط معابد الكرنك ونهر النيل، ومعه القناة الرئيسية للميناء، حيث كانت تبحر الزوارق الثلاثة المقدسة للإله آمون وزوجته من الميناء إلى البر الغربى.

ويعلق رئيس قطاع الآثار المصرية صبرى عبد العزيز على «الضجة» بقوله: «بيت مسيو لاجران ليس أثرا يجب الاحتفاظ به، سنزيل المنزل لإحياء الميناء القديم الذى يقع تحته، والغرض فتح الرؤية أمام معابد الكرنك» .

بينما يرى مدير قطاع الآثار بالأقصر منصور بريك «أن الضجة افتعلت للإبقاء على المنازل التى يقيم فيها الأثريون الفرنسيون، الذين

يــرون فى هدمها ضعف منهــم.. هى حالة عناد لا أكثــر أو أقل، هذا بالرغم مــن أن دومنيك فالابيل مدير المركز الفرنســى بالقاهرة قد وقع على وثيقة عام ١٩٦٧ بهدم منزل لوجران» !

(٣)

وفى إطار الحملة المغرضة ضد مصر فى الميديا الفرنسية والتى دفعت اليونسكو إلى اتهام مصر بتشويه الآثار، زعموا أن مواطنين من الأقصر بعثوا لهم برســائل استغاثة لإنقاذ آثار الأقصر من محاولات تشويهها تحت لافتة «التطويــر» .. ومن هذه المزاعم أن نقل مواطنى البر الغربى فى منطقــة القرنة من بيوتهم إلى بيوت أخــرى، هى عملية «تهجير» جديدة. !

وعبرت النيل إلى البر الغربى وشاهدت البيوت القديمة.. والجديدة وقمت بزيارة لمنزل قديم يملكه الحاج محمد أبو طايع، ويبلغ من العمر ٩٣ ســنة.. لكنه قادر على الحركــة، صاحب ذهن مرتب وصاف، وهو يقود حركة المعارضة لنقل البيوت من فوق الجبانات إلى القرية الجديدة فــى نجع الطارف فــى حين أن حفيده الذى يلقــب «بأحمد العمدة» له رأى آخر.

الجد محمد أبو طايع حالــة فرعونية خالصة. أقرب إلى غصن البان القوى برغم السنين.

يحكى عن علاقته بكارتر مكتشــف مقبرة توت عنخ آمون، وحسن بك فتحى المعمارى المصرى العظيم، صاحب نظرية عمارة الفقراء.

يقـول الجد محمد : إن منزله المبنى من الطـوب اللبن، عمره الآن ١٢٠ سـنة، ورثه عن أبيــه، ويعيش فيه أولاده وأحفـاده، وهو على مسـاحة كبيرة، ومثبت فى خارطة الآثار، وأيـام الملك فاروق صدرت قرارات إزالة لكل بيوت البر الغربى، ما عدا هذا البيت، الذى يقع فى نجع «الحروبات» وهو واحد من نجوع القرنة.

ويؤكـد، أنه بوصفه «دلال النجـع» .. والدلال هنا «بمعنى الحكيم الراشـد» .. وليس السمسـار، هو الذى يحكم فى المنازعات بين الناس فى النجع.

لكـن يا جدى الحاج – هكذا ناديته – تحت بيتك سـرداب، وأكيد بالسـرداب آثار، لذلك، أنت وغـيرك لا ترغبون فى ترك بيوتكم وهى بلا مياه أو كهرباء. !

ينتفض الجد من جلسـته، قائلا فى هياج، السرداب ننام فيه شتاء بلا أغطية، وصيفا بلا مراوح!

وأخذنى من يدى، وراح يعدو كشاب فى العشرين من العمر، يعرف طريقـه فى الظلام، واسـتخدمنا – نحن – البطاريـات، ونور أجهزة الموبايل لنعرف طريقنا الذى يعرفه هو جيدا.

توقـف وهو يقول: «فيه إيه فى السـرداب، قـش، أرز، تموين، فين الآثار» ؟ ويضيف : «الشيخ أحمد الطيب وأخوه محمد أخذوا قطعة واسعة، بنوا فيها قصور، ومع ذلك لم يتركوا بيتهم.. ليه؟ » .

نعود.. لنشرب الشاى، يحكى الجد عن أيام زمان، الذى كان العامل يتقاضى فيها أجرا من مستر كارتر، وينطقه «كات» .. مائة فضة! .. أما أيام حسن بك «يقصد المعمارى حسن فتحى» فكان رجلا كريما، يدفع للعامل - ومنهم أنا - ثلاثة قروش يومية.

يضيف: «الناس أيام زمان كانت تعبانة ماليا، لكن الدنيا كانت زينة» .. أما هذه الأيام «الدنيا هاصت ولا واحد طايق التانى» .. فضلا عن «التليفزيون خسر الناس، والبطالة زادت بين العيال والرجالة والنسوان» . !

وحملنى الجد محمد أبو طايع رسالة إلى «حاكم المدينة».. يقصد د. سمير فرج.. بأنه لن يترك بيته إلا إذا حصل على مساحة أرض كبيرة تساوى مساحة بيته الحالى. !

وينقل لى حفيده «أحمد العمدة» رأيا آخر، مخالف لرأى جده، ويقول: «نحن سوف ننتقل إلى البيت الجديد فى نجع الطارف لأنه مسكن صحى تتوفر فيه المياه النقية والكهرباء والصرف الصحى، ولابد من ترك هذه المنطقة الأثرية.. على الأقل سنتخلص من تهمة سرقة وتهريب الآثار» . !

وأمّا فى هذه القضية تحديدا، فقد شاهدت على الطبيعة المنازل الجديدة، وهى لا تبعد كثيرا عن نجوع القرنة، وهى تكون فى مجملها قرية جديدة، حيث تقع مساحة البيت الواحد فى ١٧٥ مترا، منها ٧٥ مترا مبانى، ومائة متر كحوش مسور.. فضلا عن أن القرية

الجديـدة - كما يقول د. سمير فرج - تضم مدرسـتين وقسـم شـرطة ومركز شـباب وسـوقًا تجاريًا، وقد روعى استخدام عوامل الطبيعة فى البناء، بحيث تشكل القرية جزءا من المنظور العام للمنطقة الجبلية.

(٤)

وقبل أن يطوى التطوير صفحة البيوت المقامة منذ مئات السنين على مقابر البر الغربى، تتدخل «يد التوثيق» لفنان تشـكيلى شـاب «عمار أبـو بكر الصديق» والذى يعمل معيـدا بكلية الفنون الجميلة بالأقصر، راح يسـجل بريشـته هذه البيوت الطينية، يسـتنطقها، يخاطبها، وتخاطبه، يحولها إلى لوحات من «لحم ودم» .. وشاع بين أطفال النجوع أنه منحـاز للبيوت الطينية، بعد أن كان الأطفال من أبناء الميسـورين يتباهون ببيوتهم المبنية من الطوب الأحمر والمسـلح، ولم يكتف عمار «٢٧ سـنة» بذلك، بل وعلى حـد قوله : «قمنا بإنشـاء جمعية بقرية المحروسـة لرعايـة التراث، تضم فـى عضويتها مـن يعملون بالأدب والإعلام والمسرح والعرائس.. وبالطبع الفن التشكيلى» .

يضيف: «وتنحصر مهمـة هذه الجمعية فى رعاية التراث القديم، ومحاولة حمايتـه ورصده من خلال الطراز المعمـارى القديم والعناصر البيئيـة التى تعكـس تأثر الفن بالمقيمين فى هـذه القرى، وقد تم عقد ورش عمل للأطفال لتربية جيل جديد يستطيع الحفاظ على هذا التراث البيئى الخالص الذى يعكس طبيعة ثقافية خاصة، والمهدد بالانقراض،

وأنتجت هذه الورش العديد من الأعمال الفنية شديدة التلقائية، والمعبرة بشكل صادق عن الزمان والبيئة، وأخذنا هذه التصميمات، وأعدنا تنفيذها عن طريق الحرفيين التلقائيين.

(٥)

تصل بعثة اليونسكو إلى الأقصر، متزامنة مع زيارتى، وتضم رون فان أورس «هولندى الجنسية» ويعمل رئيسا لقسم البرامج المتخصصة وعضوا في لجنة الحفاظ على التراث العالمى، والدكتور كريستوفر يانج «إنجليزى» وهو أثرى متخصص في إدارة المواقع الأثرية.

وقاما بجولة فى مدينة الأقصر، ومناطقها الأثرية برفقة د. سمير فرج، كما قاما بزيارة البر الغربى، وقد تابعت البعثة عن قرب، ولاحظت دقة فحصهما لكل صغيرة وكبيرة، وتصويرهما لكل شيء، وكتابة ملاحظاتهما، وكأنهما «قاضيان» . !

وكان علىّ مواجهة البعثة، بإحساس مصرى، قبل واجبى المهنى كصحفى، ولا أنكر أنها كانت مهمة صعبة في الحصول على تقريرهما قبل أن يرفعاه إلى رئاستهما في باريس.. لكنهما أكدا لى بداية:

«أن من حق السلطات المصرية إدارة مشروعاتها لتطوير المناطق الأثرية، وأن زيارتهما لم تكن بقصد التدخل، بل للمتابعة، والوصول إلى إجابات لتساؤلات وردت فى خطابات من مواطنين مصريين يعيشون فى الأقصر، زعمت تعرض الآثار المصرية للخطر» !

ونفى رون ما تردد من أن اليونسكو قد أرسلت خطابا شديد اللهجة إلى د. زاهى حواس، بل كانت رسـالة تحمل أسئلة، وقد جلسنا معا.. فى جلسة ودية، وكانت نتائجها إيجابية.

فى حين قال د. كريسـتوفر: إن الحكومـة المصرية تعهدت بقبول المسـئولية فى الحفاظ على تراثها الإنسـانى، فضلا عن حقها فى وضع خطط تطويرية لمناطقها الأثرية، بالتشـاور مـع مركز التراث العالمى، التى تحتل فيه الآثار المصرية موقعا متميزا.

وأكـد أنه من حق الحكومة المصرية إزالة العشـوائيات، بل ومنزل الأثرى الفرنسى جورج لوجران، لأنه أقيم منذ البداية فى المكان الخطأ، كذلك ما يسمى بالقرية الفرنسية.

وإن كان رون قـد تمنى لو تم تفكيك منـزل لوجران ونقله إلى مكان آخر.. تعبيرا عن الاعتراف بجهوده الاستكشافية التى تمت فى بداية القرن الماضى.

وعن نقل مواطنى البر الغربى، قال رون: إنه برغم وجود هذه المنازل على موقع أثرى هـام.. إلا إنه يتفهم حنين المواطنين إلى منازلهم الذين عاشـوا فيها عشرات السنين، ويتمنى على الحكومة المصرية أن تقيم مع المواطنين حوارا قبل نقلهم إلى موطنهم الجديد فى نجع الطارف.

ويعلق رئيس قطاع الآثار المصرية صبرى عبد العزيز على اعترافات بعثة اليونسـكو بقوله : «إنه من الإجحاف إنكار جهد الفرنسيين فى

عمليات الاستكشاف، وإن التخطيط يشمل إقامة متحف كبير، سيتم فى جزء منه الاحتفاء بكل الذين ســاهموا فى عمليات الاستكشاف ومنهم لوجران وشيفرلييه وأوجست ماريت» .

يضيف: «لقد جاءت البعثة بفكرة خاطئة عن التطوير، لكنها تعود بانطباع إيجابى بعد أن شاهدوا كل شيء، وكنا واضحين معهم، لا سيما وإن التطويــر لايهدد التراث الإنســانى، بل هو لأجــل الحفاظ عليه، بل وإن الســلطات المصرية دعت خبراء اليونســكو للمساهمة فى تطوير المناطق الأثرية» .

(٦)

ولأننــا فى مدينــة الحياة والخلود، الشــروق والغروب، وكل ذات فلسفة خاصة ورؤية، ســاقتنى قدماى بعد يوم حافل فى شمس الأقصر الملتهبة إلى حافة النيل، حيث الشمس فى طريقها إلى الرحيل.

هى راحلة إلى الغرب حيث مدافن الملوك والملكات والأشــراف، بل وإن مدينة العمال التى تبلغ عدد مقابرهم عشرين ألفا وهم الذين شيدوا هذا التراث الإنسانى المبهر.

وفى اللحظة.

لحظة انحسار الشمس فى رحلتها اليومية.

يشــعر الإنسان برعشــة غريبة.. هى رهبة ممزوجة بالسكينة مع جلال الليل.

وفى لحظة سقوط الشمس على الجبل فى البر الغربى، يبدو الجبل وكأن يد فنان قد حولته إلى جداريات.. لكن الحقيقة أن من رسـم ونقش ونحت هى الشمس بدرجاتها المتباينة ذات اللون الأحمر فى ساعة الأصيل.

إنها لحظة اكتسـى فيها النهر والجبل بآخر ضوء، فتعطى الرهبة والسـكينة فـى آن.. وتدفـع الإنسـان إلى التأمـل العميـق، وتصل به إلى إثارة السـؤال المفتقد.. لقد عرف الأجداد ما لم نعرف.. لقد توصلوا إلى الحقيقة. !

ويصل إلى أذنى فى هذه اللحظة المقدسة وميض صوت الشاعر:

من الوميض، والرعود، والزلازل
يدق جرسٌ
يدق فى السماء
وراقد يغوص فى النقوش
يحرك العيون والأنامل

...

تدب فى العروق رحلة الدماء
يسير برهة
وينفض الغبار عن يديه
ويستحم فى بحيرة البقاء.. !

(٧)

أسـتفيق من لحظة تأمل ما بعد الحياة، لأعود مرة أخرى للحياة..

لأن فيهـــا ما يســتحق الحياة، أعود إلى نهار يســطع على الأقصر التى تحولــت إلى «ورش عمــل» فــى كل الاتجاهــات، فى منطقــة الآثار، وفى أنحاء المدينــة التى تحولت ألوان مبانيها إلى لون «ثمرة الدوم» .. وتم اختيار هذا اللون حتى لا يطغى على ألوان الآثار والمعابد.

ومع د. سمير فرج أجد تسـاؤلا وقد طرح نفســه دون ترتيب: هل الأمانى ممكنة؟!

يقرر فى إجابة سريعة وقاطعة.. نعم الأمانى ممكنة!

لقد فتحت على نفسك النار من كل الاتجاهات، من أصحاب المصلحة فى عــدم التطوير، من أصحــاب البازارات، وربما مــن رجال الدين، مسلمين ومسيحيين، من مهربى الآثار، ومن اليونسكو؟!

ما الحكاية

هل تظن أنك مازلت مقاتلا فى القوات المسلحة، أنت هنا على أرض عمرها آلاف الســنين بكل تفاصيلهــا وموروثاتها، يضاف إليها عيوب هذا الزمان.!

ما الحكاية يا دكتور؟

يقرر د. سمير فرج رئيس المجلــس الأعلى لمدينة الأقصر، ويكرر إن الأمانــى ممكنــة، والأحلام يبــدأ تنفيذها بالخطــوة الأولى، وكلها تصب فــى إعادة الوجــه التاريخى المشــرق والحضــارى الرائع لمدينة الخلود، الأقصر، والوصول إلى ما كانت عليه قبل خمســة آلاف عام! .. وأن تتحول إلى «متحف مفتوح» يليق بشعب مصر وحضارته.

يســتمر فى الحكاية.. الحكاية - يا سيدى - واضحة، خطة أعدها البرنامـج الإنمائــى للأمم المتحــدة لتطوير مدينة الأقصــر، وقد ظلت حبيســة الأدراج سبع ســنوات، نفضنا عنها التراب بعد زيارة رئيس الوزراء أحمد نظيف للأقصر وبرفقته ١٢ وزيرا فى أول يناير ٢٠٠٤.

والخطة تصل بنودها إلى ٢٨ بندا، كلها تبدأ بـ «ســوف» كان علينا أن نضعهــا علــى أرض الواقع، ونبدأ، بروح المقاتــل، بدافع الإنجاز، بالإرادة، بالدعم الحكومى، والذى لحقه - مؤخرا - الدعم الشعبى.

بدأنا

❑ معابد الكرنك تقع على مساحة ٢٥٠ فدانا، وهى أكبر آثار الدنيا، علينــا أن نعيد الموقــع لما كان عليه، التكلفــة ٦١٠ ملايين جنيه وتبلغ تكاليف إعــادة طريق الكباش نحو ٢٤٠ مليونــا تم تدبيرها من وزارة التعاون الدولى.

❑ نستهدف رفع عدد السياح من ٣,٥ ملايين إلى ٤ ملايين فى العام.

❑ نتجه نحو الظهير الصحراوى، باستثمارات صناعية فى ٢٥ ألف فدان، فضلا عن الاستثمارات الزراعية فى ٤٠ ألف فدان، والبداية ١٠٠٠ فدان لمستثمر سعودى.

❑ مرسى نهرى سياحى فى منطقة الطود، سيكون أجمل من خليج نعمة بشرم الشيخ.

❑ أقمنا طريقا دائريا حول الكرنك بلغت تكاليفه ١٢ مليونا.

❑ نقوم بتطوير فكرة الأجداد الفراعنة فى ســحب المياه الجوفية،

هـم حفروا خندقا، نعيـد حفره مرة أخرى باسـتخدام التكنولوجيا، ويتكلـف ٥٠ مليونا، ٤٠ مليونا من المعونة الأمريكية و ١٠ ملايين من وزارة الثقافة.

□ أقمنا مركز النوبة الحضارى، حيث يقيم ٢٥ ألف نوبى بالأقصر منـذ التهجـير الأول عـام ١٩٣٣، وندرب فيه الفتيـات على الحرف البيئية، مع تجهيز نموذج لقرية نوبية سياحية بالبر الغربى.

يضيف.. وكما ترى نعيد تخطيط ميدان محطة السـكك الحديدية، مـع إعـادة تطويرها وتجهيزها على أعلى مسـتوى لتتـلاءم مع وجه الأقصر، مع توسـيع الشـوارع وتشـجيرها، وتغطية أسقف الأسواق، بأسقف ذات شكل جمالى تتناسب والروح التاريخية والأثرية للمدينة.

وأؤكد لك – والتأكيد لسـمير فرج – أن الأمانى .. ممكنة.! بل كل الأمانى ممكنة.

(٨)

وإذا كان د. سمـير فـرج يرى «أن الأمانى ممكنـة» ..فالأقصر تعج بمبدعيها، وعاشقيها، ومجاذيبها، ودراويشها، الذين يكتبون القصة والشـعر، ويبدعون مسرحا راقيا، وفنا تشـكيليا يوثقون به اللحظة، لعلهم يلحقون بأجدادهم.

منهم درويش كبير، اسمه «حسين خليفة» كان أول من نبه إلى الاهتمام بالـتراث الشـعبى المتناثر فى حكايات الجدود والجـدات، وفنون القول التلقائى. وحسين، وهو قاض كبير، كان المحرك الأساسى لحركة الأدب

فــى الأقصر منذ ســبعينات القرن الماضــى، بدأ شــاعرا متوهجا، عرفته القاهرة، وكتب عنه فؤاد حداد، ودعاه صلاح جاهين للإقامة فى القاهرة، لكنه لفظها، أو قل لفظته، فعاد للأقصر، ينشر، ويكتب، ويعلم.

والمدهش.. أن إنتاجه على مدار ثلاثة عقود، والذى كان يعده للنشــر، قــد احترقت اســطوانته في الكمبيوتــر! وضاع الآخر بــين أدراج مكاتب الثقافــة الجماهيريــة، وبعضه ضاع فى بيوت الأصدقــاء! .. لكنه يؤكد لى «سأعيد كتابته مرة أخرى بذات الروح التى كتبته بها من قبل» . !

ودوريــش آخــر اسمه «أشــرف النوبى» مخرج مســرحى، يرقص وهو يمشى، ويمشــى وهو يرقص، يحلم بأن تقوم الثقافة الجماهيرية بالأقصر بتدريب الممثلين والمواهب الجديدة، ويحلم بتقديم مسرحه فى الشــارع، وفى ساحة أبى الحجاج، وفى ساحة معبد الكرنك. يريد فنا يلتحم بالأقصر، ويخرج من تراثها، ومثقفيها، ومبدعيها، يقدم للناس بمختلف ثقافاتهم وجنسياتهم، يخاطبهم بالموسيقى وروح الشعر، لأنه يؤمن بأن المسرح لغة عالمية.

ويتمنــى النوبى دعما لفكرته التى تقــل تكاليفها عن تكاليف حفل عشــاء «! !» وتقل جدا جدا عن تكاليف احتفالات أعياد «الأوبت» التى أقيمــت فى الأقصر من عدة ســنوات، وأخرجها مخــرج قاهرى كبير، وتقاضى أجرا مدهشا، ومع ذلك.. لم يقدم تراث «الأوبت» . !

ودرويش آخر،

شاعر وباحث،

أحمد فؤاد جويلى يرى إمكانية تحقيق حلم أشرف النوبى، لأن الأقصر تضم مواهب كبيرة من المخرجين وكتاب القصة والشعر والمسرح، ولديهم اهتمام حقيقى بتراث مصر الفرعونى المتمثل فى الحضارة الشاهدة على الأقصر، المشروع يمكن أن يكون أقصريا وديكوره المعبد الأثرى يضيف ويحفظ الأقصر «ترابها وسحابها وناسها» كنزا كبيرا من المعتقدات الشعبية والأساطير، والتراث الشعبى بشقيه الشفاهى والمادى، وإذا كانت كل قرى مصر تختزن هذا الكنز، إلا أن الأقصر – بوجه خاص – لها ما ليس لغيرها من مدن وقرى مصر.

يتذكر جويلى ويوضح .. «وأنت عندما تستيقظ فى الصباح، وتتوجه إلى مدرستك، ويكون أول ما يواجهك بوابات الكرنك العظيم، أو معبد الأقصر، قل لى ما الذى يدور فى مخيلتك، ما الذى تختزنه الذاكرة، كيف تتفاعل صور العمالقة و التماثيل و المعابد، مع سجودك طفلا فى بيت من بيوت الله» ؟!

ويشرح.. لقد وضعت «خطة أطلس فلكلورى أقصرى «وبدأت فعليا فى اختيار مقر بالبر الغربى، وتأسيس «جماعة حفظ وتوثيق التراث الأقصرى» وقد عرضت الفكرة على د. سمير فرج، فرحب بها، ووعد بتدعيمها.

يضيف.. سنعمل على توثيق المادة التراثية التى سنجمعها، و سوف نجرى دراسات تحليلية لكل قسم من هذه المواد، لإصدارها فى مجموعة كتب تحفظ تراث الأجداد.

وتستمر سلسلة الدراويش فى حب الأقصر.

و الفنـــان التشـــكيلى «عمار أبو بكر الصديق» قدم من المنيا لدراســـة الفنون التشـــكيلية بكلية فنون الأقصر، فسكنته الأقصر، فأقام بها بعد انتهاء دراســـته، وتعيينه معيدا بالكلية، أســـأله عن أوجه الشبه بين الطقـــوس الفرعونية، وملامح الحياة فى مصر القديمة، وما يحدث الآن فى الحياة المعاصرة.

يقول.. ما يحدث في موالد العارفين بالله، هو كثير الشبه مع ما كان يحدث قديما، مثلا: الشـــكل المصمـــم عليه مقام العـــارف بالله بمدينة ســـوهاج يمثل تطورا طبيعيا لشـــكل أبو الهول، وما يقـــدم من نفحات ونـــذور لمقامات الشـــيوخ الآن، تشـــابه تلك التى كان يتـــم تقديمها فى العصور الفرعونية، والشموع والمخبوزات البسيطة تشبه ما يتم تقديمه عند الأقباط وهو «القربان» .

ويشير عمار إلى أن فكرة «تغيير توب العارف بالله» سنويا، وغسيل المقام بماء الورد، هو تقليد فرعونى، حيث غسيل قدس الأقداس سنويا بماء الورد .

ويرصد عمار حركة الفنان التلقائى، وهو يرسم جداريات الحج على البيوت الطينية، وهى تعكس الطبيعة المتأصلة فى الشخصية المصرية، وتحايله على كل ما هو محرم فى رســـم الشـــخوص والرموز بتصميمات مشابهه لتصرف الفنان المصرى القديم .

ويـــرى أن أعمال الفنان المصرى القديم، ســـواء كانت عمارة أم رسمًا أم نحتًا، هى حالة من حالات التدين الشديد.

(٩)

وبعد أن فرضت الشمس سطوتها على الأرض، انزوت، رحلت عبر النيل إلى الجبل فى البر الغربى، وعادت فى صباح اليوم التالى مشـــرقة على الأقصر، التاريخ، البدايات، وأنشد مع الشاعر :

وصـــلــــت ســـالــــــمـــــا
كـمـا يـقـال فى الـحـكـايات الـقـديـمـة
تـعـلـقـت أصابـعـى بـصـخـرة الـشـاطـئ
سقطت -مرهقا على الرمال - برهة قصيرة
أفقت، قبل أن تغوص فى المياه نجمة الحكاية !
حـقـــــا... أفـــقـــــت
واقـــــرأ الــتـــاريـــخ
عـلـى صـفـحـات الأقـصـر

فقـد بلغت من القـدم والعراقة و الأصالة، مبلغـا كبيرا، وهى من مدن قليلة فى العالم ممن شـهد مولد التاريخ، والحضارة الإنسـانية، منذ آلاف السـنين، فضـلا عن كونها تمتلك ثلث آثـار العالم، وكانت الأقصر، ولم تزل جزءا عزيزا من وادى النيل.

وكان الوادى قديما مليئا بالمسـتنقعات و الأحراش، ينمو بها نبات الـبردى واللوتس و أشـجار النخيل و الدوم والجميز و السـنط والنبق و الصفصـاف و الغاب، وكانـت تعيش بها أفراس النهر و التماسـيح و الزراف والفيلـة و الذئاب و الضباع، كما كانـت تكثر فيها الحيات

و الأفاعـــى و الثعابــين، علاوة على أنــواع كثيرة مــن الطيور المحلقة فوق الوادى .

كان هذا حال الوادى قبل اكتشاف الحضارة .

ويشــير الباحثــون إلى تعدد الســلالات و الأجناس البشــرية التى عاشــت فى جنوب الوادى وشماله، فقد ضمت أجناسا حامية وسامية، بل وبحر متوسطية، ويمكن القول بأنها انصهرت معا ولا أحد يستطيع أن يدعى أن جنسا ما قد عاش فى منطقة ما منعزلا بمفرده.

ويشــير الباحث الأقصرى عبد المعطى الكلاســى بأن صعيد مصر - والأقصــر جــزء أصيل منه - قد ســاد فيــه «الجنس الحامــى» القادم من الجنــوب ويدل على ذلــك التماثل فى الإنتاج الحضــارى فى مصر و النوبة السفلى.

وغالبية ســكان الأقصر من فروع تنتمى إلى أصول سامية، تتفرع من أصل واحد، ترد نسبته إلى سام بن نوح عليه السلام، فيما تنتمى بعض القبائل إلى ســلالات مصرية قديمة، وبعضها يرجع إلى سلالات عربية وفدت إليها من شــبه الجزيرة العربية، خاصة أيام الفتح الإســلامى، واســتمر تدفقها إلى مصر طــوال القرون الماضية ومن أهــم القبائل التى وصلــت مصــر «جهينة» و «بيلــى» وقد اتجهــت الأولى إلى صعيد مصر وشمال السودان، ويطلق عليهم الآن «عرب جهينة»

ومن أشــهر القبائل التى ســكنت الأقصر، خاصة الكرنك و المنشاة والعواميــة، قبائــل «الفهدية» الــذى يرجع نســبهم إلى فهد بن جبل

القرشــى الهاشمى، الذى يمتد نسبه إلى العباس بن عبد المطلب، كذلك ذرية الصحابى الجليل عبادة بن الصامت، والصحابى محمد بن أبى بكر الصديق، ويسكنون قرية «الجبيل».

كما ســكنت القصــر وقراها ونجوعها قبائل عديــدة وفدت من مكة و اليمــن والعراق و تركيا والأندلــس، إضافة إلى الأقباط الذين عاشــوا بها .. كما يوجد ذريات و سلالات يرجع نسبها إلى الفراعنة و اليونان والرومان، و الذين امتزجت دماؤهم بغيرهم فى الأقصر.

ومــن أشــهر الشــخصيات التــى ســكنت الأقصــر العــارف بالله أبــو حجاج الأقصرى، القــادم من العراق، وفقا لما ذكــره الأدفوى فى كتابه «الطالع السعيد» .

والناس فى الأقصر – خاصــة المقيمين فى القرى و النجوع – مازال غالبيتهم يتمسكون بالنظام القبلى، بل ويعيشون فى ظله.

وهو نظام، يحترم كبار الســن من ذوى النســب، وأصحاب العقول الراجحــة، والأخلاق الحســنة، والســمعة الطيبة، ويؤخــذ برأيهم ومشــورتهم فى حل المشــكلات، والصلح بين المتخاصمين، ورد الحقوق لأصحابهــا، ولا يعقــد أو يــبرم أمــرا إلا بعد الرجوع إليهــم و الأخذ برأيهــم، ومشــورتهم، فهم أهل «الحل والعقد» فــى المجتمع المترابط ويتميــز الناس فى ظل هذا النظام بالولاء و الانتماء لعائلاتهم، ويلاحظ وقوفهم بجانب بعضهم وقت الشــدة و الأفراح والمناســبات و الترشيح للمجالس النيابية .

(١٠)

وقد تعددت أسماء الأقصر من عصر إلى عصر . وقد وصف هيرودوت مدينة طيبة بأنها المدينة ذات «المائة باب» إذ كانت محصنة بأسوار عالية، وموزعة على أماكن متفرقة، ويدل على ذلك ما جاء في نصوص الملك «أمنوفيس الثانى» الذى يقص علينا «أنه عند عودته ظافرا من حملته في آسيا، علق ستة رجال مهزومين فوق أسوار طيبة» .

وقد أطلق العرب المسلمون على هذه المدينة بعد فتح مصر، اسم «الأقصر جمع قصر» .. في إشارة منهم إلى معابد تلك المدينة الشامخة ووصفها المؤرخ ياقوت الحموى بقوله «الأقصر اسم مدينة على شاطئ شرقي من النيل بالصعيد الأعلى، وهي أزلية قديمة ذات قصور» .. في الوقت الذى قال فيه ابن بطوطة «وهي صغيرة حسنة، وبها قبر الصالح العابد أبو الحجاج الأقصرى» ..

وورد في معجم البلدان «الأقصر كأنه جمع قصر، وهو اسم مدينة على الشاطئ الشرقى للنيل بالصعيد الأعلى» .. وجاء في الخطط التوفيقية «ومن أسمائها طيبة، وطيوة، واسمها على لسان العامة لقصر».. وجاء عنها في قوانين ابن مماتى «الأقصرين وهما بالبر الشرقى من النيل يقصد الأقصر والكرنك- وبها عنب غاية فى الكبر و الحسن، وبها مدرسة لطلب العلم، ويعمل فى هاتين البلدتين من الفخار الأبيض النقى الرفيع الذى ليس يعمل بديار مصر .. مثله» .

ويذكر الباحث عبد المعطى الكلاسى أن مدينة الأقصر كانت قديما «أبت الثنائية» .. و ذلك فى إشارة إلى قسمى المدينة اللذين يمثلهما معبدا الأقصر والكرنك، وقد أطلق على معبد الأقصر اسم «أبت رسيت» بمعنى «أبت الجنوبية» .. كما أطلق على معبد الكرنك اسم «أبت إيوت» بمعنى «عروش أبت» . ومن الجائز، كما يقول الباحثون أن «أبت» كانت تنطق فى عصر الدولة الحديثة «آبى» وهى كلمة إذا سبقتها أداة التعريف للمؤنث «تا» تصبح «تابى» وقد حرفت الكلمة إلى «طيبة» .

وقد جاء فى النشيد التاسع من الإلياذة «هناك فى طيبة المصرية حيث تلمع أكوام سبائك الذهب، طيبة ذات المائة باب، حيث يمر فى مشية عسكرية أربعمائة من الرجال الأبطال بخيلهم، وعرباتهم من كل باب من أبوابها الضخمة» .

ويفسر الكلاسى كلمة طيبة بأنها مشتقة من الكلمة المصرية القديمة «تا - أبت» .. أى «الحرم» أو «المكان المقدس» .. فضلا عما ذكره و يجل بقوله «إن طيبة مركبة من مقطعين هما «تا» ومعناها «أل» تضاف إلى الاسم المؤنث و «ابى» ومعناها مدخل أو باب، ومن هنا فإن طيبة تعنى الباب، وكانت تطلق على القسم الغربى المعروف الآن ببيان الملوك أو طيبة الأموات»

وقد أطلق المصريون فى عهد الدولة القديمة على الأقصر اسم «المدينة الجنوبية» .. وهى عاصمتها والتى أسسها الملك مينا الذى

ظهر فى طيبة، ويأتى ذلك بعد نجاحه فى تحقيق الوحدة الشاملة بين مملكتى الشمال والجنوب، وقد اختار مينا هذا المكان تحديدا ليسهل له السيطرة الكاملة على شطرى البلاد .

وفى عصر الدولة الوسطى نسبت طيبة إلى معبودها «آمون» والتى صارت له القبلة، فسميت المدينة «توت آمون» بمعنى «مدينة آمون».. وفى الدولة الحديثة، صارت الأقصر عاصمة سياسية ودينية، وأطلق عليها اسم «المدينة المنتصرة» .. كما أطلقوا اسم «واست» بمعنى «الصولجان» رمز الحكم والسلطان، وفى العصر اليونانى و الرومانى، أطلق عليها اسم «ديوسبوليس مجالا» أى «المدينة الكبرى لزيوس».. حيث شبه اليونانيون الإله آمون بالإله اليونانى الشهير زيوس.

وقد أطلق المصريون القدماء على البر الشرقى للنيل «مدينة الأحياء» حيث المعابد الدينية التى تؤدى داخلها طقوس العبادة والتقرب إلى الآلهة كما يوجد بها قصور الملوك و الأمراء و النبلاء و الأشراف، وبيوت الكهنة والموظفون وعامة الشعب، و أطلقوا على البر الغربى «مدينة الأموات» حيث المعابد الجنائزية، وفيها يقوم الملك بخدمة الآلهة بعد موته، كما كان يطلق على مدينة الأموات اسم «برحا تحور» أى «بيت حاتحور» الإله المقدسة فى هذا الوادى الموحش، و الذى يوكل إليها مسئولية حماية هذه المدينة من عبث اللصوص حينذاك، لكن فى هذه الأيام .. من يحميها من عبث اللصوص المعاصرين.؟!

(١١)

قالت صغيرتي:

العبرة نأخذها مــن التاريخ، وننفذ بها إلى الحاضر، ربما نصل إلى تصور للمستقبل.

ويرد عليها فاروق جويده بشعره:

بــيـــن الحــجــارة عـــاشـــق
عـرف اليقين على ضفاف النيل يوما فاهتدى
وأحـــبـــه حـــتـــى تــلاشـــى فـــيـــه
لـم يـعـرف لـهذا الحـب عـمـرا.. أو مـدى

(١٢)

وقد تعددت الآلهة في طيبة، وتمثل في الثالوث المقدس «الإله آمون» الذى كان يظهر فى صورة آدمي، أو فى هيئة حيوان على صورة كبش.

«و الآلهــة موت» زوجة آمــون، متمثلة فى صورة امــرأة، أو أنثى العقاب، أو أنثى الأســد، و «الإله خنســو» إله القمر، وهو ابن لكل من آمون وموت، ويظهر فى صورة إنســان برأس صقر، يحمل على رأســه الهلال، يعلوه قرص القمر كاملا، وقد حظيت بمكانة دينية سامية.

وقد اعتاد مؤرخو التاريخ الفرعونى على تقســيم تاريخ مصر إلى أقسام متتالية، يحمل كل قسم مجموعة أسرات، وصلت إلى ٣١ أسرة، بدأت بالملك مينا موحد القطرين، ومؤســس الأســرة الفرعونية الأولى عام ٣٢٠٠ ق.م وتنتهى بقدوم الإسكندر الأكبر، ودخوله مصر عام ٣٣٢ ق.م .

وقـد آمن المصريون بعقيـدة التوحيد، وأن للكون إلهـا واحداً، هو المتصرف في كل الأحوال، كما آمنوا بعقيدة البعث والحساب و الثواب و العقـاب، لذلك فقد اعتنى المصريون بموتاهم، بما في ذلك التحنيط.. سر الأسـرار حتى الآن، كما اعتنى المصريون ببناء المقابر الملكية وغير الملكية و اهتموا بتزيينها، وتنافسـوا فيها تنافسا كبيرا، وقاموا بنقش أعمالهم، وأساليب حياتهم على جدرانها، لتكون أنيسا لهم في الممات، إلى يوم البعث والحساب .

(١٣)

وقد أسـفرت هذه العقيدة عـن إنتاج هذه الحضـارة الهائلة، التى اسـتخدمت العلم فـى بدايات تاريخ الإنسـانية، لتقدم فنا تشـكيليا ومعماريـا، وصفـه أبناء هـذا الزمـان، بأنهم لم يصلوا بعـد إلى قامة أجدادهم في إنتاجهم الفني الكبير.

وعلى رغم آلاف السنين، هى عمر هذه المعالم الحضارية والأثرية، فقد ظلت شامخة، وهي بذلك شاهدة على عبقرية الإنسان المصرى القديم.

والأقصـر فـى برها الشـرقى هى «مدينـة الأحيـاء» .. ومن أبرز المعالم:

مـعـبـد الأقـصر:

هـو من المعابد الدينيـة، والتى تقام فيه الطقـوس الدينية، وتُقَدَّمُ القرابـين والابتهالات للآلهة، ويقع على مسـاحة أربعة أفدنة، على

مقربة من شاطئ النيل، ويبلغ طوله ٨٥٣ قدما، وعرضه ١٨١قدما، وهو يمثل شموخ مدينة طيبة عاصمة العالم القديم.

ويرجع بناء المعبد إلى فترتين، الأولى فى السنوات الأخيرة من الثامنة عشرة، والثانية فى النصف الأول من الأسرة التاسعة عشرة.

وقد أقيم على أنقاض معبد قديم يرجع بناؤه إلى عصر الدولة الوسطى، وقد أقيم معبد الأقصر ليكون مقرا لثالوث طيبة المقدس، والتقرب إلى الآلهة «أمون وموت وخنسو» .

وقد شارك فى تشييده تحتمس الثالث الذى أقام بالمعبد مقاصير زوارق ثالوث طيبة المقدس، فضلا عن رمسيس الثانى الذى أضاف للمعبد الفناء الخارجى المفتوح بأعمدته، والصرح العظيم فى النهاية الشمالية للمعبد، فضلا عن مسلتين شامختين.

ويروى المهندس «باك ان خنسو» الذى أشرف على البناء بعضا من ذكرياته «لقد أقمت هذه المسلات من الجرانيت، وكان بهاؤها يصل إلى السماء وزرعت الأشجار فى الحدائق، وصنعت أبوابا ضخمة ذات دلفتين من الالكتروم، يلتقى جمالها مع جمال السماء» .

ويحتوى المعبد على تماثيل لرمسيس الثانى وتوت عنخ أمون، كما يضم فناء به عدد كبير من الأعمدة على شكل زهرة اللوتس، ويذكر أن الاسكندر الأكبر أراد أن يرضى الإله أمون فأقام له مقصورة فى أقصى جنوب المعبد داخل الهيكل، ثم جاء المسيحيون فشيدوا كنيسة

لهم داخل قدس الأقداس، و فى العصر الفاطمى أقام المسلمون مسجدا للعارف بالله أبو الحجاج الأقصرى فى الفناء الأول.

وتمثلت داخل معبد الأقصر - بذلك - حضارات فرعونية ويونانية ورومانية ومسيحية وإسلامية.!

معابد الكرنك

والكرنك يعني «القرية الحصينة» أو «الحصن» ويعد من أكبر دور العبادة في التاريخ، وبنى لعبادة الإله أمون، إله مدينة طيبة.

ويقع على مساحة ٦٣ فدانا، يربطهم معبد الأقصر «طريق الكباش» الذى أقامه أمنوفيس الثالث ١٤٠٥ - ١٣٦٨ ق.م .

ومعابد الكرنك، عبارة عن مجموعة فسيحة من المبانى المقدسة، ويضم عددا من المعابد أبرزها معبد الإله خنسو، وأمون رع الكبير، ورمسيس الثالث، والآلهة موت، وبتاح وحتحور ومنتو.

وبدأ تشييد هذه المعابد فى أوائل الدولة القديمة،ثم الوسطى،وصولا إلى الدولة الحديثة، وحيث يقف الفرعون فى البهو، يرى عبر النيل معبد الدير البحرى.

(١٤)

وبعبور نهر النيل، إلى البر الغربى، وبالانتقال على وسط التلال والهضاب والصحارى، يشعر الإنسان وكأنه فى العالم الآخر، لقد اقشعر بدنى وأنا فى مدينة الأموات، فالقدسية فرضت نفسها،

وجلال الموت تملكنى، وعبق التاريخ أخذنى، إلى حيث يعيش الأجداد فى العالم الآخر.

وقد أطلــق الفراعنة على البر الغربى اســم «مدينــة الأموات» وقد اختــاروا هذا المكان ليتم الدفن فيه. وهو يعد النموذج المقابل من الجهة الجنوبيــة للجبانــة العظيمة فى مدينــة منف القديمة فى الشــمال، وهاتان المدينتان المقدســتان «طيبة الغربية» جنوبــا و «منف الغربية» شمــالا تعتــبران مكملتين لبعضهمــا، ليس فى الموقع فقــط، ولكن فى التاريخ أيضا.

واختيار البر الغربى له فلسفة دينية، هى أن جهة الغرب، كانت مقدســة عند المصريين، لاعتقادهم فى أن مغيب الشمس ما هو إلا طريق إلى العالم الآخر، عالم إله الموتى «أوزوريس» ولا يمكن للمرء إلا أن يقف مندهشــا لتلك المقابــر الملكية المنحوتة داخل الصخــر، ووراء الهضاب فى الوادى الموحش، وذلــك لضمان راحتهم الأبدية، وحماية مقابرهم من أعمال السطو بعد مماتهم .

ومــن المعابــد اللافتة للانتبــاه - وإن كان كل شــىء لافتا للانتباه والدهشة - المعابد الجنائزية، ومعبد القرنة، والدير البحرى، وتمثالا ممنــون، والملكة حتشبســوت، وتحتمس الثالث، ورمســيس الثانى، ودير المدينــة، والمعابد الجنائزية بمدينة هابــو، ومقابر وادى الملوك والملكات، ومقبرة توت عنخ أمون، وباقى ملوك الأسر الفرعونية، فضلا عن مقابر الأشراف والتى تصل إلى ٤٠٠ مقبرة.

وفـــى عصرنا الحديــث، وتحديدا فى عام ١٩٧٥.. تم إنشــاء معبد الأقصــر والذى يقــع بين معبدى الأقصر والكرنك، على شــاطئ النيل، وقد أقيم بغرض عرض القطع الأثرية النفيسة.

وشــيد المتحف على أحــدث الطــرز المعمارية، مســتخدما أحدث الأســاليب المتحفية فى العرض، ويضم - بــين ما يضم - جناحا خاصا لعرض آثار فرعونية «خبيئة».. هى غاية فى الجمال و الروعة.

ومتحف الأقصر، يعطيك الإحســاس بالزهو تجاه حضارة عاشت آلاف السنين - وتؤكد قدرة الإنسان المصرى المعاصر على الحفاظ على تاريخه. !

(١٥)

تطل الشــمس على مدينة الأحياء، ويظل القلــم عاجزًا عن التعبير عــن عظمة الزمان والأثر، ويظل الإحســاس معلقا بالأقصر، هذه أرض أجدادى، وهذا مجد على أحفادنا الحفاظ عليه.

ويبقى أن أشــدو مع عاشــق الأقصر الشاعر أحمد جويلى فى نهاية الرحلة :

تــفــلــتــت الــمــجــرة الــكــواكــب
ومـــن عـــروقـــهـــا الــجــبــال
تكـشـف كـهوفـها عـن الرسـوم
فـــكـــرة ومـــومـــيـــــاء
ونازحين - فى الجدار - للبقاء
وعن شـروحهم لـمبـعث الضمير

والقيامة
من التراب أقلع الشجر
وأقلعت حقول
أتى المزارعون
مضى ربيع كدحهم إلى الأفول
وغاصت الجذور نحو باطن
الثرى.

أرض الفيروز و القمر وصندوق الذهب

ما إن وَطِئَتْ السيارة رمال سيناء بعد عبورى نفق الشهيد أحمد حمدى الواصل بين السويس وسيناء تحت مياه قناة السويس، حتى أحسست برعشة ملأت نفسي وجسدى، تأملت الشمس، وراحت عيناى تلتهم الصحارى الممتدة، وذاكرتى تلح على بالمكان والتاريخ، على هذه الأرض وطوال ستة آلاف عام سالت الدماء دفاعا و استبسالا هنا حارب أحمس الحيثيين باختراع عصره «العربة الحربية» .. وهذا الطريق هو أول طريق حربى عرفه العالم و الذى سمى «حورس» فرعه الشمالى بسيناء الشمالية، والجنوبى يمر بالنقب حتى جزيرة فرعون، والذى عرف فيما بعد بطريق الحج.. ومن هذا المر قطع عمرو بن العاص الرحلة من الجزيرة العربية ليعز الإسلام بمصر، وتعز مصر بالإسلام، ويجوب صلاح الدين صحراء سيناء مدافعا صلدا عن العروبة والإسلام، حيث قاعدته بوابة جنوب سيناء، من خلال قلعته بجزيرة فرعون جنوبى طابا بثمانية كيلو مترات .

وبعد سنوات الاحتلال، أعاد المصريون ما ضاع منهم، محققين مقولة «مصر تعرف أن الشمس فوق سيناء يطلعها البشر» !

لقد حقق الإنسان المصرى المقولة، وأعاد شمس سيناء إلى الوطن.

نبدأ الرحلة فى التاريخ والجغرافيا : لقد أطلقت تسميات كثيرة على جنوب سـيناء، أرض القمر، أرض الفيروز، أرض الأديان، فى الوقت الـذى أطلق عليها فى العصور الفرعونية اسـم «توشـويت» أى الأرض الجرداء، وفى عهد الدولة الأشورية «أرض مجان» الذى صرف إلى اسم «مدين» الذى عرفت به سـيناء فى العصر العباسى، أما كلمة سيناء فقد اقتبست من لفظ «سين» ومعناه «القمر» ..!

وجنوب سـيناء .. هو الجزء الجنوبى من شبه الجزيرة التى تعتبر أول منطقة شـهدت صناعـة التعدين فى التاريخ، فمنذ أكثر من سـتة آلاف عـام، تم صهر النحاس، واسـتخراج الفيروز و الذهب من وادى النصـب و وادى المغارة، ومنذ أكثر من خمسـة آلاف عام، وضعت أول أبجدية عرفها العالم، حيث شهدت مغارات الفيروز ما سجله الفراعنة منذ زوسر وحتى سنوسرت من نقوش هيروغليفية وسينية .

وشهدت هذه المنطقة طوال التاريخ، صراعا محموما، وكانت البوابة مـن العرب إلى العرب عبر سـيناء، لذلك كان مـن الطبيعى أن تتحصن لحماية الحدود الشرقية لمصر، حيث توجد قلعة طور سيناء التى بناها السـلطان سـليم الأول عام ١٥٣٠ و التى تبعد عن مدينـة الطور بنحو خمسـة كيلو مترات، ثم قلعة الجندى التى بنيت فى عصر صلاح الدين الأيوبى عام ١١٧٠ على بعد سـتة كيلو مترات شرق مدينة رأس سدر، أمـا قلعة صـلاح الدين التى بدأ فى تشـييدها عـام ١١٧٠ فوق جزيرة

فرعون بعد انتصاره على الصليبيــين، فتبرز أهميتها فى قيامها بدور حيــوى فى حماية خليــج العقبة و البحر الأحمــر و الجزيرة العربية من الوقوع فى أيدى الصليبيين .

كذلــك موقعها المنيع ضد «أرناط» الصليبى أمير حصن الكرنك الذى قام بتجهيز حملة للاســتيلاء على الجزيــرة للانطلاق منها إلى المدينة المنورة عام ١١٨٢ ، إلا إنه لم يتمكن من ذلك، وظلت صامدة أمام ضراوة الحصار المضروب عليها من السفن الصليبية ..

.. وقلعــة صــلاح الدين - وفقا لما ذكره د. أحمــد قدرى - من الآثار الشــامخة و الدالة على عمق الفكر العسكرى المصرى، علاوة على قيمتها الأثريــة و التاريخية و الإســلامية، لأنها لعبــت دور الحارس الأمين للشواطئ العربية فى مصر و الجزيرة العربية و فلسطين على حد سواء.

ويوجد فى هذه المنطقة معبد سرابيت الخادم بمدينة أبو زنيمة، وقد بنى «للإله حتحور» حامى حدود مصر الشــرقية منذ أربعة آلاف عام، ووادى المكتــب وبه كتابات تاريخية على جوانب جباله باللغة القبطية و اليونانية والعربية، ثم وادى المغارة وبه صخرات عليها نقوش باللغة الهيروغليفية، وهو مكان لتعدين الفيروز، وبه تمثال كبير أقامه الملك «سمرخت» آخر ملوك الأسرة الفرعونية الأولى، أما أهم الصخرات التى عثــر عليها فى هذا الوادى، فهى صخرة سمرخت التى تعتبر أكبر أثر للفراعنة فى سيناء، بل قيل إنها أقدم أثر من نوعه فى العالم .

وشبه جزيرة سيناء، جغرافيا تقع في أقصى الغرب من قارة آسيا، وتربط قارتى آسيا و أفريقيا برا، وبعد حفر قناة السويس زادت الأهمية الاستراتيجية لسيناء باعتبارها حلقة اتصال العالم برا وبحرا، علاوة على الخيرات الكامنة فى جبالها ووديانها وسهولها وشواطئها، وتبلغ مساحتها بعد صدور القرار الجمهورى فى عام ١٩٧٩ بتقسيمها إلى محافظتين شمال وجنوب، حيث يفصلهما الخط الوهمى الواصل من طابا شرقا إلى رأس مسلة غربا، حوالي ٣٠ ألف كيلو متر.

وهى شبه جزيرة مثلثة الشكل تقع بين خليجى السويس والعقبة ويغلب على طبيعتها الجبال التى تتوسطها، ويصل ارتفاعها إلى ٢٦٣٩ مترا وتتخلل هذه الجبال مجموعة من الوديان تهبط إلى الشرق والشمال والغرب، وقد وهبها الله جمالا طبيعيا فذا، فتجد ألوانها زاهية خاصة الأحمر والأصفر والأخضر و الأسود علاوة على أن أمطار السيول حفرت على الجبال رسوما يخيل للمشاهد أن هناك فنانا عظيما نحتها، أو رسمها وخلق منها تشكيلات فنية مدهشة .

كما أن سلاسل الجبال تعلو وتنخفض وتعطى شكلها العام «بانوراما» بألوان متعددة وفقا لسقوط الشمس عليها، خاصة عندما تنحدر، فتعطى ما يسمى «بالسلويت» أبعادا فنية لا تنسى، أما المنطقة الوسطى، وبها هضبة «العجمة» تليها شمالا هضبة «التيه» أى إن تضاريس جنوب سيناء جبلية ساحلية إذ يبلغ طول شواطئها ٦٠٠ كم، حيث يوجد سهل ضيق

على خليج العقبة، وسـهل ساحلى متسع نسـبيا على خليج السويس، ويمتاز هذا الشاطئ برمال ناعمة ساحرة، وبمياه زرقاء رائعة.

وإذا تتبعنـا الطريق خطـوة خطوة، نبدأ من منطقـة جنوب عيون موسى، فرأس مسلة ثم رأس سدر «المدينة البترولية القديمة» ثم منطقة العيون الحارة بجبـل فرعون وميناء رأس ملعب حيث يصدر الجبس، فواحـة غرندل ثم مدينـة أبو زنيمة حيث المنطقـة الصناعية الجديدة للفيرو منجنيز ثم مدينة أبو رديس يليها منطقة بلاعيم ثم سهل القاع، وتقاطع وادى فيران المتجه شـرقا إلى المنطقة الجبلية وسانت كاترين، أمـا المتجـه إلى مدينة الطـور عاصمـة المحافظة والتـى ارتبط اسمها «برحلـة المحمل والحـج إلى بيت الله الحرام» كمـا ارتبطت بالمحجر الصحى ثم معتقل الطور.

وكانـت الطـور منذ عصـر المماليك مينـاء تجاريا هامـا، وموقعا استراتيجيا وعسكريا كبيرا، وقد استخدم هذا الطريق للحج منذ سافرت «شـجر الدر» عام ١٢٤٨ م مع قافلة الحجاج إلى مكة عن طريق سـيناء - فيتجه جنوبا إلى سهل القاع لمسافة ٦٠كم، ثم ٩٠كم للمتجه إلى شرم الشـيخ، أما سـاحل خليج العقبة فيبدأ من محميـة رأس محمد حيث شهرتها العالمية فى دنيا الغوص تحت الماء، ثم خليج نعمة وهو قطعة فنيـة بديعة، ثـم مدينة ذهب، وهـى بحق مدينة ذهبيـة برمالها، فعند شـروق الشـمس وغروبها، ترسل الشمس أشـعتها الذهبية عبر السماء الصافية، وتمر وتتلاقى مع ذرات الرمال الناعمة التى تراقصها

الريـاح، وتداعبهـا ذرات بخار الماء الصاعد من ميـاه الخليج، فتكون بانوراما شكلتها هذه الرؤية الذهبية.

ونواصل السير إلى نويبع فجزيرة فرعون.

ونستقر فى طابا !

وطابا.. دخلت مفردات الوطنية المصرية من أوسـع أبوابها، كانت النقطـة الأخيرة التـى تم تحريرها، وقـد انتابنى شـعور متناقض، ومتضارب «هو» بين الشعور الوطنى الفياض، ومشاعر الغضب للتواجد الإسـرائيلى المشـبوه! لقد خاضت مصر معركة خاصة بطابا اسـتمرت سـت سـنوات وخمسـة شـهور وأربعة أيام، منها ثلاث سنوات فى التحكيم الدولى.. حيث كانت معركة بحق، إذ قدمت مصر مذكرات إلى محكمة العدل الدولية بلغت ١٥٠٠ صفحة وستة مجلدات من الملاحق، ومائة سـاعة من المرافعات الشـفهية، وكان الجميع، رجال السياسـة والقانون والجغرافيا والتاريخ والاسـتراتيجية والمسـاحة العسـكرية والحدود فى سباق رهيب مع الزمن من أجل إعادة طابا عزيزة وغالية.

وطابـا.. هى فصـل هام فى كتـاب الحرب بين مصر وإسـرائيل، وذلك يطرح تسـاؤلا: لماذا احتفظت إسـرائيل بطابـا، ذلك أنها تمثل أبعادا هامة، سياسية واسـتراتيجية وعسكرية، فهى تمكن إسرائيل مـن وجود حدود لها مع مصر والأردن والسـعودية، حيث تتحكم فى عدة طرق إلى السـويس وشرم الشـيخ والعقبة، ووجودها – أى طابا – مع إسـرائيل يجعلها من دول حوض البحر الأحمر الذى يمثل – فى الحقيقـة – بحـيرة عربيـة خالصة.. وعـادت طابـا إلى موقعها من

الوطن الأم، لا سـيما وأن اسمها الأصلـى كان «رأس المصرى» كما يقول د. يوسف أبو الحجاج.

والثابـت تاريخيـا أن قدمـاء المصريين أطلقوا على بدو سـيناء اسـم «هيرسـاينو» أى «سادة الرمال».. أما فى العصر المسيحى فقد عرف هؤلاء السكان باسم «أعراب بنى إسماعيل» ..ويرجع أصول بدو سيناء إلى العنصر العربى الذى أطلق على جميع الشـعوب الناطقة باللغات السـامية فى كل المنطقة العربية.. إذ كانت تلك المنطقة متصلة ومتشـابكة مع المجتمعات المحيطـة بها، وتعتبر قبائل «يلى» من أقدم القبائل العربية الموجودة فى شبه جزيرة سيناء، وإن كانت من أقلها عددا فى الوقت الحاضر وقد هاجر من الجزيرة العربية فى عصر الفتح الإسلامى نحو ٧٥ قبيلة، استقرت فى مصر وسيناء، ومنها قبائل «بنو واصل والمواطرة، والبدارة» التى استقرت فى شبه الجزيرة، وذابت فى سكان البلاد الأصليين من «المونيتو» وكونت الأسـاس الاجتماعى للمجتمع البدوى الذى يتكون فى جنوب سـيناء من ١٣ قبيلة، تشكل الحياة الاجتماعية داخل المجتمع المتناثر.

وأهم القبائل الحالية فى سـيناء الجنوبية «الصوالحة» الذين يرجع نسـبهم إلى «حرب» من قبائل الجزيرة العربية، وهم يمتلكون الآن قلب بـلاد الطـور، أما قبيلة «مزينـة» فتنزل فى المنطقة الواقعة إلى الشـرق من سـانت كاترين، وتمتد على طول خليج العقبة، أما قبائل العليقات، فينسـبون أنفسـهم إلى قبيلة قديمة من بنى عقبة، وإن كان البعض يرى أن هـذه التسـمية محرفة، وأنهم فـى الحقيقة «عقيـلات» لا «عليقات»

نسبة إلى عقيل بن أبى طالب، وهم ينزلون فى مناطق غنية بالماء والنبات، أما قبيلة «الجبالية» فهم ينتسبون إلى المنطقة الجبلية المرتفعة التى يسكنونها فى منطقة جبل موسى وسانت كاترين، وهم يختلفون اختلافا ملموسا عن سائر بدو سيناء فى ملامحهم وسماتهم وطبائعهم.

وبدو سيناء ليس لهم قانون مكتوب يحكم التعاملات بين الناس، لكنَّ تراثا طويلا من المعاملات، وضع قواعد مضبوطة للتعامل يحترمها الجميع، ويقول «نعوم شقير» صاحب أضخم وأقدم كتاب عن سيناء اسمه «تاريخ سيناء» يقع فى ألف صفحة، ولا يباع إلا فى مكتبة «سانت كاترين» بدو سيناء كسائر البدو، يعنون بحفظ أنسابهم، بل ويبالغون في استقصائها حتى يردوها إلى الآباء الأقدمين، كما أن كل قبيلة مرتبطة بسائر القبائل بحلف أو «قلد» ولها حسيب حافظ لعهودها مع القبائل، ويعرف بالعقيد، أو بنقال الأقلاد، أو نقال العلوم، أما «الحلف» فهو المحالفة بعينها، وهو معاهدة دفاعية هجومية، وأما «القلد» فهو معاهدة سلمية لمنع الحرب أو الغزو وحفظ السلام بين القبائل، ويشترط فيما يعقد عنده الحلف أو القلد أن يكون مشهورًا مذكوراً وسيع المراح راعى مال وعيال، ويدعى راعى البيت، وبيته بيت العمارة، وهو الشاهد الحكم بين المتعاهدين ويورث علمه للأرشد من أولاده!

واستنادا إلى العرف الذى استقر بين القبائل، فأضحى أقوى من القانون، يفصل فى الخلافات بين البدو «قضاة» منهم ينتخبون

من كبار المشـايخ، ويتصفون بالإلمام التام بالعـرف القبلى - كما يقول الباحث محمد نور الدين - لذلك قسمت شرائع العرف كالتالى :

القاضى الذى يختص بالجرائم التى ينكرها من تنسب إليه لعدم كفاية الأدلة، يقوم باختيار المتهم عن طريقين، أولهما: اختباره بالنار، وذلك بأن يتولى إحضار طاسـة نحاس يحميها على النار إلى أن يحمر لونها، ويمسحها ثلاث مرات، ثم يأمر المتهم بأن يغسل لسانه بالماء، ثم يناوله الطاسة المحماه «ليلحسـها» بلسانه، ثم يغسله، فإن ظهر على لسانه حرق «فقفقة» حكم المبشـع بالدعوى لخصمه، وقيل فى تبرير ذلك، أن المتهـم إذا كان ارتكب الجريمة، فان ريقه يجف من الخوف، وبالتالى تؤثر النار على لسانه.

أمـا الاختبار الثانى فيكون بالمـاء، وذلك بأن يحضر القاضى إبريقا مـن النحاس، ويقف الحاضرون ومن بينهـم المتهم فى دائرة، ثم يقوم القاضى «بالتعزيم» على الإبريق الذى يتحرك من تلقاء نفسه، فإذا وقف أمـام المتهم، ثبتـت عليه التهمة، وإن وقف أمام المبشـع «أى القاضى» كان بريئا.!

أما القاضى المختـص بالعقوبات والجروح، فهو يصور الجزاء على قدر كل جرح، وأكثر القصاصين من قبيلتى المزينة والقرارشـة، وهناك قضاة متخصصون بأمور الإبل، وشريعة الإبل صارمة جدا لأنها الأساس الاقتصادى للقبيلة، وهناك قضاة متخصصون فى النساء، ويحكمون فى المسائل المتعلقة بهن مثل هتك العرض والمهر والطلاق .

وإذا كان الرجـال في المجتمع البدوى هم المسـيطرين، لكن المرأة البدويـة لهـا دور هام فى الحياة الأسـرية، فهى التـى تصنع الخيام وتغزل الأغطية وتقوم بجلب الماء وجمع الحطب وطحن الحبوب، علاوة على مهارتها الخاصة فى التطريز البدوى المشـهور بوحداته الجميلة، ومنها «دقن الباشا».

ومـن تقاليد البدو أن المرأة تحلف أو تقبسـم برأس أبيها، لا برأس زوجهـا، وذراع ابنها، وهذا يدل على مدى اعتـزاز البدوية بأهلها، وتمسـكها بإعلاء شأنها، بالرغم من زواجها، أما قسمها بذراع ابنها، فهذا يعنى رغبتها فى تنشئته بحيث يصير قويا شجاعا.!

ويفضل بدو سـيناء الـزواج المبكر، وإن كانـوا لا يميلون إلى تعدد الزوجات إلا فى أضيق الحدود مثل الرغبة فى الإنجاب، وعادة يتخير الشـاب واحدة من بنات عمـه، ولا يؤخذ برأى البنت إذا كانت «بكرا» .. أما إذا كانت «ثيبا» فيؤخذ رأيها، ولابد من رضاها، وإذا رضى والد البنت بالخاطب ناوله غصنا أخضر وقال له: «هذه فسـيلة فلانة بسنة الله ورسـوله.. وإثمها وخطيتها فى رقبتـك من الجوع والعرى ومن أى شـئ نفسـها فيه وأنت تقدر عليه» .. وعندما يتناول الخاطب الفسيلة يقول لوالد الفتاة: «قبلتها زوجة لى على سنة الله ورسوله» .

ويتم إعداد خيمة للعريس تدعى «البرزة» ليزف فيها على عروسـه، وتدخل مع العروس أقرب قريباتها، أما سـائر الناس فيجلسـون خارج البرزة، ويقوم أهل العريس بنحر الذبائح من الغنم لأهل الفرح عند باب

البرزة، ويعدون الأطعمة المحببة، ويمتد السـامر حتى منتصف الليل، وأثناء الاحتفال تخرج الناس من البرزة، ليدخل العريس، ويمكث فيها مع عروسـه ثلاثة أيام، والعادة المدهشة، هى فرار العروس قبل انتهاء الأيام الثلاثة من البرزة، فيطاردها العريس، وذلك لكى يعيشا فى الخلاء بعيدا عن مخيم القوم، حتى يتم إعداد الخيمة الجديدة لهما.. !.

..

وسيناء.. تلك «العقدة» التى «تلحم» أفريقيا بأسيا كما يقول العاشق المصـرى جمال حمدان، ليسـت مجرد صنـدوق من الرمـال، إنما هى صنـدوق من الذهب، فقـد كانت منذ الفراعنة منجمـاً للذهب والمعادن النفيسـة، وهى الآن بئر بترولها، كما أنه من المهم أن ندرك أن سيناء ليسـت مجرد فراغ أو حتى عازل، إنها عمـق جغرافى وإنذار مبكر، يمكن أن نشـترى فيه الزمان بالمـكان، إنها ككل خط الدفاع الأخير عن مصر «الدلتا والوادى» . !

وإذا كان العلـم الـذى يرفرف علـى تبة طابا دليل عودة الشـمس والدفء لسـيناء مصر، فهل عودة الشمس والدفء والوصال بين سيناء والوطـن الأم يكفى؟ وهل هذه العودة تصبح مجرد مادة للأغانى وكتابة الأشعار؟

فى رد عملى يقول عمنا جمال حمدان – الذى كان يرسم خطط المستقبل باعتبـاره واحدا من سـدنة هذا الوطن – التعمـير، ويضيف.. التعمير البشـرى، والتعمير العمرانى، فالفراغ وحده هو الذى يشجع «الجشع»

ويدعــو الأطماع الحاقدة إلى ملء الفراغ، وهناك إجماع على ضرورة نقل الكثافة الســكانية المكتظة فى الوادى إلى أطراف الدولة وحدودها، بما فيها وعلى رأسها سيناء، إن التعمير هو التمصير. !

ويرى عالم الجغرافيا حمدان أن ســيناء تحمل فى طياتها إمكانات كبيرة للاســتصلاح والتوســع الزراعى، كما أن قضية تمديد مياه النيل إلى شــبه جزيرة سيناء ليســت بدعة «فقد كان النيل يصب قديما غرب ســيناء، كما أنه مــن الوجهــة العمرانية البحتة لم يعــد هناك مبرر لأن تظــل قناة الســويس أحادية الضفــة، بل ينبغى أن تــزدوج تماما بالعمران الكثيف على كلتا الضفتين، ومن الضرورى أن تمتزج مشاريع التعمــير بمشــاريع الدفــاع معا، وفى تخطيــط تعمير ســيناء القوى، تضع التحدى الحضارى على مستوى التحدى العسكرى.

روزيتا .. نهارك سعيد !

واحد مـن دراويش النيل «أنا» وكنت قد ألقيت نفســى فى مياهه، فقادنى إلى مصبه، عند زهرته الجميلة «روزيتا» أو «رشيت» .. وأخيرا «رشيد» .

والثابت تاريخيا وحضاريا أن المنبع ممثلا فى «النيل»، قد صدر الحياة إلى المصب، فى حين صدر المصب ممثلا فى «البحر المتوسط» الحضارة إلى المنبـع، فالأول صدر الخام، والثانى أعاده إليه مصنوعا وغزاة، وكانت رشيد فى الحالتين محور الحياة والصراع.

فى الطريق من القاهرة، وفى اتجاه الشمال بنحو ٢٥٠ كم، نصل إلى رشـيد، ويتبين لنا عجب هذا النهر، الذى خرق القاعدة الجيولوجية مرتين، ولصالح مصر:

- ❑ تتجلى الأولى فى كونه أحدث أنهار القارة الإفريقية.
- ❑ والثانيـــة بوصفه مخالفا لكل أنهــار الدنيا، إنه يتجه طوليا من الجنــوب إلى الشــمال، ولم تفت هــذه المخالفة الطبيعيــة هيرودوت.. فســجل «أنه يجرى عكس كل الأنهار الأخــرى» .. ووصفه عمنا جمال حمدان بأنه: «العاصى الأعظم» . !

(١)

والزهرة الجميلة «رشـيد» .. ذلك المثلث الذى يحده شـرقا «النيل»

فى فرعه المســمى باسمها، وشمالا البحر المتوســط، حيث يلتقى النهر مع البحر فى عناق أســطورى، أسفر: حياة وحضارة وغزاة ومصاهرات ومعاهــدات، وقلاعــا، أما الضلع الثالث، فهو قاعــدة المثلث التى يبلغ طولها ٢٢ كم، ويضم مليون نخلة.

يصف أحد علماء الحملة الفرنسية «جولوا» هذا الموقع بقوله «رشيد» قابعة على شط النيل، وعلى بعد ثلاثة فراسخ من البحر المتوسط، وتستخدم كمســتودع للبضائــع القادمة من القاهرة، والمناطــق العليا من مصر، كى تنقل إلى أوربا عن طريق الاســكندرية، وبنفس الطريقة تستقبل البضائع القادمة من أوربا عن طريق الأسكندرية، وتنتقل هذه البضائع إلى القاهرة عبر النيل، ومن هنا تتوزع إلى جميع أنحاء مصر» .

يضيف جولوا، الذى وصل رشــيد عن طريق البحر المتوسط على متن الســفن الفرنســية الغازية، كما جاء فى موســوعة وصف مصر، والتى نقلها إلى العربية أحد كهنة حب مصر زهير الشايب.. «على بعد ثلاثة أرباع الفرســخ من مصب النيــل، كان لون المياه أخضر فاتحا، وقد تبين الخط الفاصل بين اللون الأخضر لميــاه النيل، واللون الأزرق لمياه البحر المتوســط، وما أن اجتزنا البوغاز، حتى تغير اللون الأخضر، إلى اللون الأصفــر الناتج بلا ريب من لون الرمال التــى ينقلها النهر إلى مصبه، والناتج كذلك من لون الطمى العالق بمياه النهر» .

وأسبح مع «جولوا»
والسباحة هذه المرة جنوبا

فقد تجاوزنا البوغاز.. ودخلنا إلى النهر الذى احتوانا، ونظرنا يمينا:
«كانت ثمة غابات من النخيل ذات خضرة آخاذة، وحيث إن شطآن النهر قليلـة الارتفاع، فقد كان مدى البصر يمتـد إلى بعيد، كنا نلمح قرى، ومـآذن رائعة وأضرحة تتجمع حولهـا مجموعات من النخيل، أما من جهة الدلتا، فكانت العيون تشـعر بارتياح تجاه حقول يغطيها الأرز، فتشـكل واحدا من أبهج المناظر، ومن غير بعيد من النهر، ينمو بوفرة المحاصيل والشـجيرات، ويلاحظ من بينها غابات من أشجار البرتقال والليمون التى تنشر شذى طيبا» .

ويضيف، جولو وأنا: «وقد يتهيأ المرء وهو يعيش وسط أشجار وشجيرات بساتين رشيد، أن يترك لخياله العنان، ولا يستطيع إلا الاستسلام للبهجة التى تصنعها الروائح التى تنتشـر فى كل مكان.. وللمشـهد الآخاذ لزهرة الرمـان ذات اللـون الأرجوانى، ولزهـرة الريحان ذات اللـون الأبيض، ومع ذلك فهل يمكن لهذه الجداول التى تنشر الماء والنماء فى كل مكان أن تكمل صورة الجمال، يضاف، كل بسـاتين رشيد تقع على حافة الصحراء، وتشكل سياجا يحدد مساحتها، وكذلك فإن الأشجار التى تزرع فيها تصنع ما يشبه حواجز تصد عن المدينة رمال الصحراء» .

(٢)

ورشيد:

مدينـة قديمة يرجع تاريخها إلى ما قبل الأسـرة الأولى فى التاريخ الفرعونـى، لأن الملـك مينا كان قد زحف إليها فى ثورته الأولى سـعيا

وراء تحقيق الوحدة بين الوجهين القبلى والبحرى، فاصطدم بأهل هذه المنطقة الذين كانوا يسـمون «رخيتو» أى «عامة الناس» .. وهذه الكلمة قريبة من الأصل القبطى لرشـيد وهى «رشـيت» التـى صارت فيما بعد «رشـيد» .. أما «روزيتـا» أى الوردة الصغيرة «فهى ليسـت إلا تعديلا للتسمية «رشيد» .

وفى الأسـرة التاسعة عشـرة، أقام الملك «منفتاح» استحكاماته على الضفة الغربية لفرع النيل برشـيد، لصد هجمات الإغريق والصقليين، وقد انتصـر المصريون لأول مرة فـى معركة حربية مـع أوربا، والتى جرت وقائعها على أرض رشـيد، كما أقام الملك «بسـماتيك الأول» عام ٣٦٦ ق . م معسكرا على ساحل رشيد، وأوقف ثلاثين سفينة لحمايتها، كمـا أن فرع النيل الحالى «البولبتينى» نسـبة إلى «بولبتين» التى قامت رشيد على أنقاضها فى العصر اليونانى، حيث كان يصنع بها العجلات الحربية اليونانية .

ودخلـت رشـيد فى الإسـلام على يد عمـرو بن العـاص بعد فتح الأسـكندرية عـام ٢٠ هـجريـة، وكان حاكم رشـيد القبطى «قزماس» قد عقد صلحا مع ابن العاص وأدى الجزية، وظلت الكنائس على حالها لمن بقى على دينه من أهلها .

وفـى القرن الثالـث الهجرى، وعلى حد قـول اليعقوبى فى مؤلفه «البلدان» كانت رشـيد مدينة عامـرة آهله بها ميناء بحرى يجرى فيه مياه النيل إلى البحر المالح، وتدخله المراكب حتى تصير فى النيل» .

يضيف «أما فى القرن الرابع الهجرى، فقد تعرضت رشيد للمعارك الحربية التى جرت بين العباسيين والمغاربة، ففى سنة ٣٠٦ هـ. أرسل المقتدر بالله العباسـى أسطولا من بغداد التقى عند رشيد بأسطول المهدى صاحب المغرب، فانتصر العباسيون حيث احترقت مراكب المهدى وفنى كثير من رجاله ووقع الباقون فى الأسر» .

ويقول ابـن دقاق فى كتابه الانتصار بواسـطة عقـد الأمصار «ثغر رشـيد المحروس، وبلدته عند مجمع البحرين وتجاهه جزيرة تعرف بالخضـراء ويوجد بهذا المكان فرس النيل، وبهـا جامع وحمام وأمير مركـز وبها كوم الأفراح، وبأعلى الكـوم منار يرى منه مراكب الفرنج القادمة، وقد عمَّره السـلطان الظاهر بيبرس البندقدارى، وبأسفله برج عمَّره الأمير صلاح الدين بن عرام على شـاطئ النيل، وبالبرج المذكور كُتَّاب سـبيل يقرءون به، وهذه البلدة كثيرة بشـجر الرمان والنخيل، وأهلها قليلون، وعامتهم صيادون فى السمك والطير، وإن كان أهل هذه المدينة كلهم مرابطون» .

وقد بلغت رشـيد أوج حضارتها فى القرن العاشر الهجرى، ويذكر ابن زبيل فى تحفة الملوك والغرائب: «من ثغور مصر كوم الأفراح، فيها مقابـر كثيرة من الصحابة، وهى مدينـة حصينة، بينها وبين أبى قير بالأسـكندرية نحو ثمانية فراسـخ فى البر، وفى رشـيد يعمل السكر ويُجْلـب منها إلى جميع الممالك، وكذلك الأرز والسـمك، وبها أصناف اللحوم والفواكه» .

لذلـك .. فقـد حظيت هذه المدينـة بعد أن أصبحت أقـرب الثغور المصرية من استنبول بعد فتـح مصر «٩٢٤ هـ - ١٥٧١ م» بالمنشـآت العثمانية، وكان أكثرها مساجد ووكالات ومقاهي ومتاجر، وكان يوجد بها مؤسسات أوربية وقناصل يمثلونها، وأولها البندقية، إلا إن القرن الثاني عشر قد شهد انحدار المدينة، شأنها في ذلك، شأن المدن المصرية على أيدى المماليك المتناحرين .

(٣)

ومع مطلع الثاني من شهر يوليو ١٧٩٨، كتب فصل جديد من التاريخ المصرى، حين حط نابليون بونابرت بقواته في الأسـكندرية، حالما بأن تكـون مصر «لؤلؤة» الإمبراطورية الفرنسـية، على غرار الهند «لؤلؤة» الإمبراطورية البريطانية، وعلى حد تعبير بونابرت في مذكراته «تأمل ما تصبح عليه هذه البلاد الجميلة بعد خمسين سنة من الرخاء والحكم الصـالح. إن المخيلة لترتاح إلى صورة جذابـة: ألف هويس تتحكم في طـول البلاد وعرضها، لتوزع مياه الفيضان، وثمانية أو عشـرة ملايين متر مكعب من مياه النيل تضيع كل عام في البحر، يمكن أن توزع على كل منخفضات الصحراء». !

وبعد مقاومة باسلة في الأسكندرية، تم استقرار الحال لبونابرت، فبـادر بالتوغـل فـي البلاد لإتمـام فتحها، فأرسـل قوة إلى رشـيد، لأهميتها، ولتأمين احتلاله للأسـكندرية لأن تموينها من الطعام يأتى من رشـيد، غير أن رشـيد لم تقع فريسة سـهلة في أيدى الفرنسيين،

لأن المقاومة الشعبية كانت مستقرة - كما يقول محمد زيتون فى كتابه إقليم البحيرة - فأدرك الفرنسيون ذلك الاتصال الوثيق بين مقاتلى الأسكندرية، ومناضلى رشيد، فصبوا جام غضبهم على السيد محمد كريم بطل المقاومة الشعبية السكندرى، إذ نقلوه من الأسكندرية إلى رشيد، وبعد مهزلة أسموها محاكمة، حكموا عليه بالإعدام .

(٤)

وفى ٢ مارس ١٧٩٩ ، تمت المصاهرة الفرنسية المصرية، بعقد قران الجنرال جاك مينو، القائد الثالث للحملة الفرنسية، والذى أشهر إسلامه، وأطلق على نفسه اسم «عبد الله» على جميلة جميلات رشيد الآنسة زبيدة بنت محمد البواب، من كبار تجار رشيد.

يقول الجبرتى «إن قائم المقام الذى يسمى عبد الله جاك مينو، وكان حاكما على رشيد، وأعلن إسلامه وتسمى عبد الله، وتزوج بامرأة مسلمة غصبا عن أهلها، ففر والد زبيدة من المدينة يوم خطبتها خوفا من عار هذه الزيجة التى لطخت اسمه» !

ولم يثبت أن سلمت زبيدة قلبها إلى مينو الفرنساوى، بالرغم من أنها أنجبت منه ولدا سمى «سليمان مراد» .. وقد كتب مينو - الذى انتقل إلى القاهرة فى يونيو ١٨٠٠ م خطابا إلى المشايخ والعلماء يوم أن أنجب ولده يقول فيه «يا حضرة المشايخ والعلماء، إننا نشكر فضلكم على ما أظهرتم لنا من تهنئة بولادة ولدى السيد سليمان مراد جاك مينو، فنطلب من الله سبحانه وتعالى، ونسأله بجاه رسوله سيد المؤمنين

أن يجود بــه على زماننا مديرا، وأن يكون للعدل محبا، وللاســتقامة والحق مكرما» !

يتبادر تساؤل: هل كانت زبيدة بهذا القدر من الجمال المصرى الذى بهر مينو، أو أنه كان زواجا سياسيا قصد به التودد إلى المصريين؟

والتساؤل التالى : كيف كانت زبيدة؟

زبيدة بنت الســيد محمــد البــواب، كان وجهها إشــراقة الصبح أو صفحــة البدر به، لها عينا حور امتزجت بها صولة ســحر، فكانتا شــباك الفتنة لصيد القلوب، وأنف أحســن الله تقويمــه، فزاد وجهها جمالا، وثغر درى ياقوتى تهيم به الشفاه وتحوم حوله القلوب ظمأ كما تحوم طيور الصحراء حول معين الماء العذب.

كانت زبيدة – و الوصف لعاشــق رشيد فرج العزازى نقلا عن الشاعر على الجارم – فى الثامنة عشرة من عمرها، تفتح فيها الشباب كما تتفتح زهــرات الربيع، فارعة القد، ملفوفة القوام، جرى حديث جمالها الفاتن مــن فم إلى فــم، وانتقل من دار إلى دار، حتى أصبحــت مضرب المثل بين فتيــات المدينة، ومقياس الجمال كلما ذكــر الحديث عنه، وتهافت أبناء التجار والأعيان و الحكام على خطبتها و التقرب من قدس حسنها، ولكن كانت ترد كل توسل، بالرفض، ولم تكن أمها تستطيع أن تفعل شيئا أمام هذه الحسناء الجامحة، لم يكن أبوها، وهى وحيدته ليرد لها كلمة .!

كانــت زبيدة عند أبيها الفتاة المدللة، وقــد ملأتها ثقتها بجمالها غرورا، وزادتها ثروة أبيها ميلا للتأنق و الرفاهية و إنفاق المال الكثير

علـى الحلي و الجواهر والملابـس فكانت في جمالها و أزيائها ودلالها أسطورة الجمال و أبهى خيال، جميلة الجميلات زبيدة البواب.!

وذات يوم :

ظهـرت العرافة «رابحة» التي مرت علـى منزل البواب، فوجدت زبيدة تجلس بجوار أمها «نفيسـة» .. فجذبتها من يدها، ونظرت في كفها، ثم شـهقت في دهشـة حائرة .. وصاحت : «سبحانك يا ربى، لا راد لمشـيئتك، ولا معقب لحكمك، بيدك الملك، وأنت على كل شـيء قدير» !.. واسـتطردت: «انظـرى يا زبيـدة إنه خط الملـك في يدك.. ستكونين ملكة مصر، فتحيتي وخضوعى لمولاتي زبيدة ملكة مصر» .!

وانفلتـت العرافة «رابحة» .. ولم يعثر لها بعـد تلك النبوءة على أثر!.. وسلبت هذه النبوءة من زبيدة فكرها، وسكنت الحيرة عاطفتها بين ميل قلبها لحبيبها «محمود العسـال» ابـن خالتها وبين نبوءتها التي أشعلت بريق الحلم البعيد الذى سيطر على خيالها .!

(٥)

وكيف تم الزواج ؟

تسـاؤل منطقي يطرح نفسـه، ربما تتكشـف الحقائـق حول هذه المصاهرة السياسية الفرنسية المصرية، هل كان طموح زبيدة، وجمالها، وسـحرها وراء تحقيق نبوءة رابحة العرافة، أو أن رغبة مينو في ضبط الأمن مع أهل رشـيد يأتي من باب المصاهرة، وهل لو كانت زبيدة فتاة مصرية عادية، وكان جمالها طبيعيا كشـأن بنـات نيل مصر، هل كان

مينو سـيقترن بها ، أو أن «القـدر و المكتوب على الجبين» هو الذى أتم الزواج ؟

في صباح يوم الجمعة عام ١٧٩٨ هبط الفرنسـيون رشـيد، وهرب مـن مواجهتهم حاكم رشـيد عثمان خجا، وجنوده من الانكشـارية، ودانت السيطرة للجنرال «دوجا».. وبعد ثلاثة أيام وصل الجنرال جاك فرانسواه مينو إلى رشيد بعد أن عينه نابليون بونابرت حاكما عليها .

واشـتعلت المقاومة الشعبية، وضمت رجال دين وبسطاء، لكن المقام استقر للفرنسيين

وذات يـوم ومينـو يجلس فى صـدر إيوان بيته فى رشـيد «يتملل ضجرا من المقاومة الشعبية، أشار عليه بعض معاونيه من ضرورة تغيير سياسته تجاه أهل رشيد، بالتقرب منهم، عن طريق المصاهرة !

وبعـد مداولات اختار لــه أحد العالمين ببواطن الأمور فى رشـيد، إما واحدة من بنات الشـيخ الجارم، و إمـا بنت البواب، وعندما وصل الخبر إلى الشيخ الجارم، قام على الفور بعقد قران ابنتيه «رقية وآمنه» على طالبين كان يدرسان على يديه. !

ولم يبق غير بنت البواب

وأرسـل مينو فى طلـب محمد البـواب، وداهمه بطلـب يد ابنته الوحيدة «زبيدة».. وأسـقط فى يد الرجل، وهرب من رشـيد قبل إتمام الزواج، فى الوقت الذى أشهر فيه مينو إسلامه، وسمى «عبد الله» .

وكان شاهدا العروس، شقيقيها من الأم «على الحمامى السيد أحمد»

و «إبراهيم الحمامى السيد أحمد» .. وبحضور مولانا أحمد الخضرى المفتى الشافعى، والشيخ صديق النايب، والشيخ محمد غزال النايب، وأحمد البدوى نقيب الأشراف .

وقد صدر التوافق والتراخى بين الحاج حسين الميقاتى الوكيل الشرعى للعروس وبشهادة شقيقيها، للزواج من عبد الله باشا مينو سارى عسكر القطر المصرى، بموجب كتاب الزوجية المسجل بمحكمة الثغر بالشروط التالية :

١ - أن تكون زبيدة الزوجة قد أقامت وأذنت زوجها وكيلا عنها فى ساير ما تملكه يدها الآن .

٢ - أقر عبد الله باشا مينو الزوج المذكور أن كامل ما هو تحت يدها من متاع ومصاغ ملك لها بمفردها .

٣ - عبد الله باشا مينو الزوج المذكور أعطى لوكيله الحاج أحمد شهاب «مائة محبوب» كل واحد منها بمائة وثمانين نصف فضة من نظير زوجته المذكورة، وأن الحاج أحمد شهاب سلم جميع ذلك ليد وكيل الزوجة الحاج حسين الميقاتى، يسلمها ذلك عددا بالمجلس وذلك على حسب عادة القضاة المسلمين .

٤ - أن الزوج المذكور شرط على نفسه أنه إذا حصل بينه وبين زوجته فراق، يدفع لها ألفا ريال، اثنان معاملة نظير فراقه لها، وكل مالها تحت يدها وقت ذلك يكون جميعه ملكا لها حسب عادة دفع مؤخر الصداق للمسلمين.

٥ - أن زبيــدة الزوجة المذكــورة إن كانت تطلب طلاقها من زوجها بحسب شرع المسلمين لم يكن لها من الألفى الريال المذكورة، ولا نصف فضة، ما عدا ما تحت يدها من مصاغ.

٦ - زبيدة لم تزل وارثة في كل ما كان شرعا .

٧ - أن زبيدة أقرت بنفســها إن مات زوجها فهى فى عصمته تأخذ من ماله ألفى ريال .

٨ - إن مات المذكور وخلف أولاداً من زوجته المذكورة وهم قصر، يقام عليهم رجلان ناظران ووصيان، واحد فرنساوى والثانى ابن عرب يتصرفان فى أموالهم بحسب المصلحة فى طريقة الفرنساوية وطريقة المسلمين .

٩ - إن ماتت الزوجة يكون أبوهم هو الوكيل الشرعى على أولادهم وعلى أموالهم.

١٠ - إن مــات عبد الله باشــا وزوجته وخلفــا أولادا تركوهم تحت حماية جمهور الفرنساوية .

والزوجة والزوج أقرا، واعترفا برضاهم هذه الشروط على يد وكيلهم الإقرار والاعتراف الشــرعى الصادرين منهما بالمجلس، وأنهما التزما بهذه الشــروط، وأقرت ثبوتا شرعيا بحكما بموجبه في ١٧ من رمضان ١٢١٣ هجرية الموافق ٢ مارس ١٧٩٩ ميلادية.

(٦)

ولقيت زبيدة فى أول الأمر من مينو شغفا وهياما وطرقا فى الغزل، وشكوى فى الصبابة، وكان يجثو أمامها فى استعطاف ويتمتم فى أذنيها

بأحاديث الحب واللوعة، وذلك بعد أن انبهر بها، وما رآه من سحر وفتنة، وكان لسان حاله ينطق بما أحس به الشاعر الجميل، الشيخ الفتى الولهان محمد الشهاوى، وهو يصف «امرأته المستثناة» بقوله :

هى امرأة تشبه الشمس إلا أفولا
على شاطئ الألق المترقرق مفعمة بلهيب الوضاءة
مترعة بأريج الأنوثة
تسلم أعضاءها ليد السحر ترسم فى
جسمها الغض أحلى الأساطير
ماذا يقول لسان المزامير
عنها
سوى أن يقولا:
هى امرأة تشبه المستحيلا
هى امرأة يشرب النور من قدميها «اللتين تشعانه»
هاطلات السنا والندى
كى يبل الصدى
والمغنى هنالك - محتدما بأوار التراتيل -
يرسل اللانهائى فى مقلتيها
بريد المواويل
وهو يناغم رقرقة الضوء
إذ يتدحرج فوق حبال المدى

ليصافح في وجنتيها الصباح الجميلا
وسيدة النور تعلم أن القصائد
مفتاح الدخول إلى باجة المطلق المتهلل
هي امرأة لم تراود
سوى الحلم عن نفسه
وفاتساها
توزعه الحلم وحده والشذا
والجوى
والنحولا

...

هي امرأة قد تفرغت المعجزات لتشكيلها
والمقادير
دهرا طويلا
هي امرأة وجميع النساء سواها ادعاء
لها البحر من قبل بلقيس
عرش
وكل المياه إماء
يخاصرها الموج في نهم
ممعنا في الصبابة جيلا، فجيلا

...

هـــــــــى امـــــــــــــرأة
مـــــــــلء أعـــطـــافـــهـــا
عـــــــــــبـــــــــــق
يـــســـتـــدل عـــلـــيـــهـــا بـــه
مـــن يـــود الـــدلـــيـــلا
هـــى.. امـــرأة تـــشـــبـــه الـمـسـتـحـيـلا.!

(٧)

ورزيتا، الوردة الصغيرة، أو رشيد، كانت المفتاح السحرى، الذى فتح رحاب التاريخ المصرى القديم للإنسانية .!

كيف؟!

لقد تمكن الفرنسى جاك فرانسوا شامبليون من فك الرموز الهيروغليفية ومعرفة قواعدها ومعانيها وأسرارها المحفورة على «حجر رشيد» الذى عثر عليه أحد ضباط الحملة الفرنسية ويسمى «بوشار» والذى كان يقوم ببعض الترميمات لقلعة قايتباى برشيد.

والحجر الإنسانى المدهش، الذى تم العثور عليه عام ١٧٩٩، هو عبارة عن حجر من البازلت الأسود، تحمل نسخة من مرسوم أصدره بطليموس الخامس عام ١٩٦ قبل الميلاد مدون بخطوط ثلاثة هى «الهيروغليفية و هى اللغة المصرية القديمة، والديموطيقية وهى اللغة المصرية الشعبية، واليونانية.

وقد حاول الفرنسيون نقل الحجر معهم عند جلائهم عن مصر، إلا إن الإنجليز منعوهم، وقد آل الحجر - طبقا لشروط معاهدة ١٨٠١ بين الفرنسيين والإنجليز - إلى الإنجليز، وهو الآن من أهم الآثار المعروضة بالمتحف البريطاني بلندن.!

(٨)

وما كادت سُحب الغزو الفرنسي لمصر، تتبدد، وتزول، حتى وصلت الحملة الإنجليزية إلى الأسكندرية في ١٦ مارس ١٨٠٧، واتجهت أنظار قائد الحملة فريزر إلى رشيد في ٢٠ مارس، لتأمين التموين القادم منها، وفي ٢٩ مارس تقدمت قوة إنجليزية قوامها ١٤٠٠ جندى بقيادة الجنرال ودكوب للاستيلاء على رشيد، حيث وصلت في اليوم التالى إلى مرتفعات أبو مندور الواقعة جنوب رشيد بنحو ٢ كم .. إلا إن الحملة منيت بهزيمة نكراء . !

وكان رصيد الحملة الإنجليزية من القتلى ١٨٥ والجرحى ٣٨٢، وقيل ٥٠٠ بين قتيل وجريح، فضلا عن ٤٠ جنديا إنجليزيا تم أسرهم، وقد وصلت الدفعة الأولى من رءوس القتلى الإنجليز إلى القاهرة في ١٥ ابريل ١٨٠٧،وكان عددها ٩٠ عرضت في ميدان الأزبكية، وقد قاد الدفاع عن مدينة رشيد حاكمها على بك السلانكى، والشيخ حسن كريت، وكان النصر بفضل حسن وترتيب قوات الدفاع عن المدينة من أبنائها، وقد اشترك الجميع، رجالا ونساء وغلمانا.

والثابت تاريخيا، أن هزيمة الإنجليز في رشيد، أجّل الاحتلال

الإنجليــزى لمصــر نحو ٧٥ عامــا، إلى أن عــادوا مرة أخــرى إلى مصر عام ١٨٨٢.

ويذكــر الجبرتي في يومياتــه : «وردت معلومات من ثغر رشــيد تذكــر بأن طائفة من الإنجليز وصلت صبح يوم الثلاثاء، ودخلوا البلد، وكان أهــل البلــد ومن معهم من عســاكر متهيئين ومســتعدين بالأزقة والعطف، وكان كاشــفها في انتظارهم، وطلع بمن معه إلى البر فصادف تلك الشرذمة، فقتل بعضهم، وأسر الباقي» .

(٩)

ورشــيد، كما يصفها الفرنســاوى «جولــوا» أن شــوارعها ضيقة، متعرجة،وكل البيوت مبنية مــن طوب ضاربة الحمرة، غامق اللون .. وتســمي هذه «الطوبة» تسمي بالرشيدية السوداء التي يقال: إن العلماء عجزوا عن الوصول لمعرفة الطريقة التي صنعت بها .

ويسجل جولوا في «وصف مصر» دهشته من أن «الـمدارس في رشيد كثــيرة العدد، وهو ما يتناقض كثيرا مــع الجهالة التي كان من المعتاد افتراضها في سكان مصر» ! والواقع .. أنه لم يجتمع في مدينة مصرية من البيوت الأثرية مثلما اجتمعت في رشيد بعد القاهرة، ونظرا لأنـها كانت أغني مدينة في العصر العثماني، فقد عكست هذه البيوت ما تميز به أهل رشيد آنذاك، من التقدم في فن النجارة والعمارة والبناء، فضلا عن أن صناعة خرط الخشــب تعد من أقدم وأروع هذه الصناعات، إذ إن الصورة الزاهية والباقية حتى الآن، دليل عنوان هذه الحضارة .

وتضم رشيد ٢٢ بيتا أثريا، منها منزل الأمصيلى، وزبيدة البواب، فضلا عن ١٢ مسجدا ترجع إلى أصول تاريخية إسلامية مختلفة، وأربعة آثار أخرى هى طاحونة أبو جاهين، وحمام عزوز، وبوابة أبو الريس، وقلعة قايتباى .

وتعكس هذه الآثار الطابع الإسلامى، والمتأمل لها يقف كثيرا أمام المشربيات وصالات الاستقبال والنقوش الخزفية وأشغال الصدف، فضلا عن السراديب، وهى غاية فى التعقيد والسرية، وكانت هذه البيوت مزودة بصهاريج للمياه العذبة، ومبنية على أحدث طرق الفن المعمارى .

ويصحبنا عالم الحملة الفرنسية «جولوا» فى منزل الأمصيلى كنموذج للمنازل التى مازالت باقية، ومعظمها تحت الترميم الآن .. ويقول جولوا «يبدو فى الطابق الأرضى باب على مدخل كبير، ومن ثم بابان آخران أقل حجما، وأربعة أعمدة ذات ارتفاعات ومقاسات غير متساوية، مقامة على قواعد تشكل نوعا من الزينة، ويبنى مدخل الباب الرئيسى وواجهة المنزل من طوب شديد الانتظام، وثمة قطع من الخشب تختلط بهذا البناء، وتظهر أحيانا بالعرض، وأخرى لا تظهر، وهى مثل الإسفنج تمتص الهزات الأرضية» .

يضيف: «وينقسم بقية المنزل إلى ثلاثة طوابق تبين معالمها عن طريق كمرات خشبية تظهر أطرافها من الخارج لتشكل نوعا من الزينة، وينفذ الضوء إلى الأدوار العليا عن طريق نوافذ كبيرة تغلفها «تقفيصات» من الخشب، أى مشربيات» .

«وفى الواجهة فتحات تسمح بالتهوية، وثمة فتحات فى الجوانب لكى تجعل من الميسور الرؤية عن بعد فى الشارع حتى ترضى فضول السيدات اللاتى يستطعن الرؤية - بهذه الطريقة - أن يريْنَ دون أن يراهم أحد» . !

«وثمة طابق رابع يشكل نوعا من الأكشاك، لها شرفة تستطيع النسوة أن يروحن عن أنفسهن دون أن يراهن أحد، ومع ذلك فمن الممكن رؤيتهن عن طريق المؤذنين من أعلى مآذن المساجد، فاحتاط الرشايدة لهذا الأمر، فتم اختيار المؤذنين من العميان» . !

يضيف «وينقسم البيت إلى جناحين، جناح الرجال، وجناح الحريم، وفى جناح الرجال أو مالك البيت كانت الشبابيك مغلفة بمشربيات خشبية كبيرة المربعات، أما مربعات مشربيات النساء فكانت أقل حجما، ويتم الاتصال بين الجانبين عن طريق سلم صغير، ويتم إيصال الطعام للرجال عن طريق كوة دائرية» .

ولأن المغنى، والطَّرَب كان له باع كبير فى مصر طوال التاريخ، فقد تم تخصيص غرفة للغناء، فى منزلى الأمصيلى وزبيدة البواب، والغرفة غاية فى الجمال، فالسقف عبارة عن لوحة فنية، مرسومة بدقة، وبالغرفة مكان للتخت، وأمامه ما يشبه المكتبة، إذا فتحت - أحد أبوابها وجدت سلما صغيرا يصل إلى الدور الأعلى وبه مشربيات لتتمكن النسوة من الاستماع والاستمتاع بالطرب والموسيقى . !

(١٠)

ومـن الآثــار الإســلامية الهامــة، ذات البعـد الروحى، مسـجد أبـو منـدور، ويصف «جولـوا» هذا المسـجد الـذى تم ترميمه الآن، وهـو من معالم السـياحة الدينيـة: «إلى الجنوب بنحو فرسـخ - أى كيلو ونصف الكيلو - يقع سـفح حصن أبو منـدور، توجد به صومعة إسـلامية، وهى ملحقة بمسـجد أقيـم تكريما لولى مسـلم تقع مقبرته داخله، وأبو مندور هو اسـم هذا الولى، ويعنـى أبو الروعة والجمال، أما المكان نفسـه فيتوقف عنده البحارة والمسافرون ليقدموا نذورهم إلى شيخ الجامع حتى يحوزوا بركته ورضاء الولى، كما يحدث فى مزارات كثـيرة لأولياء آخرين، حتى يبلغ الوهـم بأن الولى من هؤلاء قادر على جلب الخصوبة للنسوة العقيمات اللاتى يجئن إليه» !

ونضيف إلى معلومات جولوا الفرنساوى أن العارف بالله أبو النضر، أو أبو مندور من مواطنى كربلاء، من سلالة على بن أبى طالب، والمسجد له ثلاثة أبواب، شمالى وشرقى وغربى، والباب الشمالى مزخرف وكتب فى أعلاه عبارات تدل على أنه جدد عام ١٣١٢ هجرية، ويرتفع السقف الخشبى للمسجد على أربعة أعمدة من الرخام الأبيض المزخرف، قاعدته منقوشة بنقوش إسلامية، وعلى شمال الداخل من الباب البحرى توجد حجرة بها قبر صاحب المسجد .

وتنحصـر الميـزات الفنية والزخرفية للمسـاجد فى رشـيد على النحو التالى:

١ – تعـدد المداخـل التى هى عبارة عن باب يقع داخل مسـتطيل بارز يعلوه عقد ثلاثي، يتوسـط عنده الأوسـط دائـرة مزينة بالزخارف النباتية والهندسية .

٢ – تحتـوى هذه المسـاجد علـى أروقة وبائكات محمولـة على أعمدة رخامية، وأكتاف تحمل أسـقفا خشبية أو قبابا كما هو موجود في مسجد المشيد بالنور .

٣ – اعتنـاء الفنان بالأضرحـة والمقاصير، فزخـرف واجهات بعضها بالطوب الرشيدى المبخور .

٤ – استخدام القيشانى فى زخرفة الجدران، وفى المآذن كما فى مسجد دومقسيس .

٥ – استخدام الزخارف المشعة فى المحاريب، وفى القباب .

(١١)

وأتجول فى شوارع رشيد

أتنفس رائحة التاريخ

الشوارع وسط المدينة، شأنها شأن مدن مصر مزدحمة نهارا، الناس على شـاطئ النيل يصنعون يخوت الأغنياء، ويتم نقلها إلى شرم الشيخ والغردقة ومارينا .

أمـا الملاحظة الواضحة، فهى المقاهى، بين المقهى والمقهى، مقهى، وهـو ما لاحظه «جولوا» من ٢٠٨ سـنوات، وعلى حد تعبيره «رشـيد

يدخن فيها الجميع، غنيهم وفقيرهم، لذلك تصبح النارجيلات ضرورة أولية، فهى تصنع بكميات ضخمة، وبأشـكال مختلفة، فهى تصنع من الطين الخزفى، معجون بعناية فائقة» .

يضيـف: «والمقاهي هـى عبارة عن صالة واسـعة ترتفع جدرانها، ويوجـد بها منصات أو مصاطب، وعلى المصاطب يأتى الناس ليشـربوا القهـوة ويدخنـوا النارجيلـة التـى لا تفارقهـم مطلقا، وينعسـون أو يستمعون إلى إنشادات الشاعر المرتجل، أو إلى حكايات يرويها حاكٍ لا يمل الحكاية، وفى مقهى كبير على النيل تأتى العوالم أو الراقصات العموميات والموسيقيون والمنشدون والشعراء» .

لكن جولوا سـجل ملاحظة هامة، وهى الأذان يطلق لصلاة العشاء، يتسابق أهل رشيد إلى المساجد، يصلون، ثم يولون وجوههم إلى منازلهم، ليناموا !

أمـا الآن.. فالنـاس يصلون – أيضا – لكنهـم يولون وجوههم نحو المقاهى، فيسـهرون فيها حتى الفجر، لذلك فقـد أصدر اللواء فتح الله الجندى رئيس المدينة قـرارا بغلق المقاهى فى الواحدة صباحا، بل إنه توقف عن إصدار تراخيص جديدة للمقاهى والكافيتريات.

ويرصـد محمد العزازى مسـألة المقاهى بقولـه: يوجد نحو ١٢٠ مقهى برشيد، عدا تلك التى أزالها رئيس المدينة والمقامة على كورنيش النيل تمهيدا لإصلاحه، وجعله كورنيشا بلا مقاهٍ أو كافيتريات.

– ويقول: مقاهى الآن.. غير مقاهى زمان.!

– كيف ؟

– مقاهى زمان كانت عبارة عن مؤسسات متنقلة لعدة أسباب منها:

١ – المجتمع الرشيدى، مجتمع محافظ، «بمعنى أنه ممنوع على الغريب أن يزور رشيديا فى منزله، بل وصلت المسألة إلى أن الأخ لا يدخل بيت أخيه فى عدم وجوده، لذلك كانت المقهى هى مكان الاستقبال.

٢ – كانت المقاهى متخصصة، منها للبنائين والصيادين والنجارين، ومختلف التخصصات المهنية، ويتم فيها الاتفاق على المقاولات، وبها المحاسبون الذين يديرون حسابات المهن المختلفة.

٣ – والذى أدى إلى تزايد عدد المقاهى زمان – على حد تعبير سمير الديبانى تزايد النشاط الاقتصادى الناتج عن الصيد قبل إنشاء السد العالى، وقبل تأميم مضارب الأرز، والقادمين من قرى رشيد لتسويق بضائعهم الريفية.

ويشير أحمد الجداوى مدير التأمينات إلى تزايد عدد المقاهى – الآن – يرجع إلى البطالة، وسهر الشباب عليها نتيجة الإحباط وعدم وجود فرص عمل.

ورصد الجداوى عدد الحاصلين على شهادات عليا خلال السنوات الخمس الماضية بنحو عشرة آلاف، بعضهم هاجر إلى مناطق السياحة الجديدة فى شرم الشيخ والغردقة.

وقـال: إن هناك أنشـطة بيئيـة اندثرت، مثـل ورش البلاط بعد ظهور السـيراميك، والسـجاد اليدوى والكليم والأقفـاص من الجريد بعد ظهور أقفاص البلاستيك والحبال واللوف.

وأشـار إلى أن الصيادين اتجهـوا إلى أرتريا وليبيا، وكان هناك وعد بإنشـاء ميناء صيد عام ١٩٨٥، مع تطهير البوغاز، فلا الميناء أنشـئ، ولا البوغاز تطهر !

وقال مدير التأمينات إن الانتعاش الاقتصادى الآن يتمثل فى صناعة السـفن واليخوت، حيث يوجد ٢٤ ورشـة، وتعد رشيد أهم المواقع فى هذه الصناعة.

وتوقع إحياء النقل النهرى، الذى سيخفف العبء على النقل البرى، حيث ستنشـأ مدارس لصناعة السفن، كما كان الحال أيام محمد على، وسوف يوفر ذلك مليون فرصة عمل، بشرط إنشاء الميناء النهرى. !

وفسـر أحمد الجـداوى تزايد عـدد المقاهـى والحلاقـين ومراكز الاتصالات، بأنها أنشطة غير محتاجة إلى رأس مال. !

(١٢)

فى زيارة سـابقة لرشـيد، كان رئيسها السـابق حلمى زايد يحلم بمشـروع قومى يعيـد آثار رشـيد بالكامل – كما يحلم بإنشـاء فنادق مسـتخدما فى ذلك البيـوت المملوكية مثل عرب كندى وحسـين غزال وزبيدة البواب، لتنشـيط حركة السـياحة، مع تحويل رشيد إلى مركز ثقافى يتسق مع تاريخها الطويل.

إلا إن محمــود درويش مدير آثار رشــيد الســابق، يرى ربط الآثار بالفنون التشكيلية، ويوافق على فتح البيوت كقاعات عرض، مع إنشاء معهد للحــرف الأثرية تتخصص في الأخشــاب وعمليات الخرط التي اشتهرت بها رشيد.

لكنه لا يوافق على فتح البيوت الأثرية كفنادق حرصا على ســلامة الأثر، الذى لا يتحمل الكهرباء والمياه والصرف الصحي.

(١٣)

وأحمل تساؤلاتي وملاحظاتي إلى رئيس المدينة الحالى اللواء فتح الله الجندى الذى يتحمل المســئولية منذ ثمانية شهور فقط، الرجل «شاب» و «متحمس» ويضع أمامه أجندة عمل يأمل في تنفيذها.. !

يقول:

☐ تأخرت رشــيد عن مثيلاتها فى المقومــات، مثل رأس البر على ســبيل المثال، والمشــاكل كانت تتمركز في عدم وجود مشروعات البنية التحتية مثــل الصرف الصحى، وبوغاز رشــيد، والمياه الجوفية وعدم الاهتمام بآثار رشــيد، وعــدم إدراجها كمدينة ســياحية وعدم وجود فنادق، ووجود نحر على شاطئ البحر عند المصب.

وبدأت المواجهة

☐ فقد بدأت الدولة فى الاتجاه لإقامة البنية التحتية، وذلك بإقامة تســعة رءوس حماية لشاطئ رشــيد بتكلفة ٩٤ مليون جنيه، ومن شأن

هذه الرءوس المحافظة على الشاطئ من التآكل، ويمكن عمل استثمار سياحى، ومصيف، وقرى سياحية على مساحة ٢٠٠٠ فدان، وذلك من شأنه تسيير عجلة التعمير على الساحل.

❑ أما بوغاز رشيد، وهو مصدر اقتصادى فى تجارة صيد الأسماك، وصناعة اليخوت والمراكب السياحية، ومراكب الصيد، مع إمكانية إقامة منتجع سياحى بالمنطقة، وذلك مرهون بتطهير البوغاز، حيث يتم الآن بعد الاتفاق مع وزارة الرى التى تتحمل ٤ ملايين جنيه. والثروة السمكية التى تتحمل أيضا أربعة ملايين جنيه.

❑ لم ترق الصناعة لتحقيق الأمل فى مشروعات تفتح أبواب الأمل للشباب، مع عدم وجود مستثمرين، لعدم وجود صرف صحى وبعد المسافة والخوف على رأس المال، والرغبة فى المكسب السريع !

❑ بعد ١٢ سنة من بداية العمل فى مشروع الصرف الصحى، تمكنا من إتمام ٨٠ ٪ منه، ومع بداية السنة الجديدة سيتم استلام محطة مقامة على ٩٠ فدانا، و ٥ محطات ربط، وبانتهاء المشروع.. المجال مفتوح للتصنيع.

❑ منذ عام ١٩٨٤، لم تمتد يد لتجميل كورنيش النيل برشيد، أو حتى رفع التعديات المتمثلة فى الكافيتريات والمقاهى، وفى تقديرى.. جميع التعديات تمثل بقعة سوداء على شاطئ نهر النيل. ! لذلك قمنا بإزالة التعديات، وسيصل الكورنيش حتى منطقة أبو مندور.

❑ تشجيع القطاع الخاص على إقامة فنادق، لتتحول سياحة اليوم الواحد إلى إقامة.

❑ نشجع الآن المشروعات الصغيرة، بتسهيل التراخيص، وتسهيل الحصول على قروض ميسرة.

❑ أما أقفاص الأسماك بالنيل، وهى ظاهرة تنامت فى غيبة المتابعة، وقد أقيمت بحجة تشـغيل الأيدى العاملة.. ولكن للأسـف لم تستخدم بطريقة صحيحة أو صحية، لجشـع البعض فى تحقيق مكاسب سريعة دون تكاليـف، حيث يتم تغذية الأسماك على الفضلات، وكان لابد من التصـدى لهذه الظاهـرة، وقد أمر محافظ البحـيرة برفع هذه الأقفاص نهائيـا، وتم إعطـاء مهلة حتى شـهر أكتوبر القادم، وإلا سـنتدخل للإزالة.

❑ نواصل ما بدأه الزميل حلمى زايد من خمسـة عشـر عاما، بزرع شـجرة أمام كل بيت، لكن غيرنا اسـتراتيجية الزميل حلمى، هو كان يمنح الشـجر مجانا، نحن نبيع شجرة لكل مواطن لكى يحافظ عليها، لكن مجلـس المدينة هـو الذى يرعاهـا.. ودعنى أطرح هذا الشـعار: من يزرعْ .. يرعَ !

وأعـرب اللواء فتح الله الخطيب.. بعد أن شـكا لى بمرارة عن تغير سـلوك المواطن الرشيدى.. أعرب عن تغيير فى عادات الرشيدى، ليعود محبا للعمل، باذلا للجهد، وأن ينام مبكرا، ليستيقظ مبكرا.!

..

وكانت رحلة إلى روزيتا، التى أقول لها بحب كبير : نهارك سعيد .

السويس: فاتحة كتب التاريخ

تاريخ المدن الثلاث «السويس و الإسماعيلية وبورسعيد» حيث معاناة ناسها وشعبها، تمثل لوحة شديدة الإخلاص فى الانتماء، وإن كانت شديدة الدراما فى الوقت ذاته، ويمكن أن يطلق عليها: تراجيديا الإنسان المصرى على شط القناة.

وعندما يؤرخ لهذه المنطقة الساخنة و الملتهبة سوف تذكر الحقائق الدالة، بل والمؤكدة، على روعة الإنسان - هنا - فى صراعه المرير مع الطبيعة، ومع الاستعمار.

وصراع الطبيعة هنا يتأكد من خلال ملحمة الإنسان المصرى فى حفره لقناة السويس، بشكل بدائى، مائة وخمسة وعشرون ألفا من المصريين، يساقون «سخرة» للحفر، فيختلط العرق بالدمع بالدم، فى لوحة شديدة الدراما.

ويأبى الاستعمار أن يسلم بأن الأرض مصرية خالصة، والدم مصرى، والدموع مصرية، والعرق مصرى، لذلك، فقد شهد «كتاب الحرب» بين المصريين والمستعمر، فصولا كاملة، من المقاومة والصمود والحصار والتصدى.

لم تلن عزيمة الناس هنا، وآلاف الأسماء «شهداء» أحياء عند ربهم يرزقون، وأحياء أعطاهم الله الصحة جزاء ما قدموا للوطن من مقاومة وعرق وصبر، كلها تؤكد الملحمة.

وإذا كان نضال الإنســان المصرى فى هذه البقعة العزيزة و الغالية، قد بدأ فى ١٨٥٩، ســنة حفر القناة، فقد شــهدت ملحمة أشــد قسوة وخطــورة وفداء وتضحيــة مع عمليات الســادس مــن أكتوبر ١٩٧٣، بما تحمله من تفاصيل كثيرة يضمها كتاب البشر على هذه الأرض.

وقد عشت أياما فى هذه البقعة، أبحث و أنقب وأفتش وأستمع وأناقش وأحلل سعيا وراء الإنسان «البطل» صاحب الملحمة، أناس عاديون، صمدوا، ولم يكن طموحهم يزيد عن «النصر» المجرد لحساب الوطن.

وأســجل هنا: أنهم - أى أبناء هذه الملحمة وتلك البقعة - خجلوا مــن التحدث عن بطولاتهم بل كم كان الســؤال اســتفزازيا، لقد قالوا: «كنا نعمل لحساب الوطن، لا نريد منكم جزاءً ولا شكورا»!!

وإذ أقدم هذا الملف الإنسانى، من كتاب البشر، الذى يضم تراجيديا الإنسان، فى منطقة القناة، والذى حاولت فيه أن ألم بالتفاصيل الإنسانية، بدءاً من تلك الأم التى كانت تطعم الجنود باعتبارهم أبناءها، إلى الرجل الذى كان يقتسم «بلحة» مع خمسة «أنفار» فى ظلام الخندق.

كمــا أقــدم نموذجا إنســانيا، لرجل عاش ســت ســنوات يشــحذ همــم الرجــال، ويقدم تجربة فريــدة فى عالم المقاومــة الذاتية اسمها «ولاد الأرض».

● الســويس.. مدينة مصريــة خالصة، تحتضنهــا، جبال عتاقة مــن الغرب، شــاهد عيان على هــذه المدينة الصامــدة، صاحبة ملحمة أبنائها الصامدين.

تطل السـويس على أفق معبق بحضارة فرعونية أصيلة، على خليج السـويس في رحلته إلى الجنوب، نبع الأصالة الإفريقية، وتلتقى على أرضها الحضارات الإنسـانية من خلال قناة السويس التى ربطت شمال العـالم بجنوبه، كما التقت الأديـان - على ترابهـا - وارتبط الكفاح المصرى بالكفاح العربى والإسلامى.

وكانت السـويس على مدى تاريخها مسـرحا لأحداث ملأت سمع الدنيا، وبصلابة عودها، وصبر شـعبها، استطاعت أن تتحمل وتصمد، وتتخطى كل العقبات، وسـجلت مالا يقوى التاريخ على نسيانه وبقيت السويس هى السويس !

وامتازت السويس - في الجغرافيا - بأنها جمعت كثيرا من الخصائص النادرة فكما أنها ميناء بحرى على البحر الأحمر، فهى - أيضا - ميناء برى على الصحراء، وقلعة عسـكرية للدفاع عن الوطن، ثم هى كانت ولا تزال، معبرا بشـريا لضيوف الرحمـن فى رحلة الحـج إلى الأراضى الحجازية، وعلى عتبتها «انتهت «المغامرة الفاشلة لإسرائيل فى العام ١٩٧٣».

والسـويس «فاتحـة» كتب التاريـخ، والتى تحتل فصـلا هاما من «كتاب الحرب» هى ذات موقع اسـتراتيجى، ذى صبغة عسكرية عبر كتاب التاريخ، وأقوى حصون الحائط الملكى منذ عهد الفراعنة، ومسرح المعارك الفاصلة فى تاريخ مصر، قديمه، وحديثه.

وقد بدأ وجود السـويس - كما يقول المؤرخ جيمس برسـتد - منذ فجر التاريخ، إذ إن الأسرتين الخامسة والسادسة من الدولة الفرعونية

القديمة «٢٥٦٣ ٢٣٠٠ ق. م» قد أقامتا استحكاماتهما فى قلعة السويس لصد المغيرين، حيث سميت آنذاك «سـيكوت» وذلك لكونها ميناء على برزخ السويس الممتد فى هذه الفترة.

وعندمـا أصبحت «مدينتنا الصامدة» عاصمة للإقليم الثامن من أقاليم الوجـه البحرى فى العصـر الفرعونى أطلق عليها «بيشـوم» إبان حكم الأسـرتين ١٩، ٢٠.. وقـد اتخذ فرعـون مصر آنذاك «يو - سـفايس» منهـا قاعـدة لعملياتـه الحربية، لتأمـين مناجم سـيناء، ويرجع - على الأرجح - تسمية السويس على اسمه. !

وأثناء حكم اليونانيـين لمصر، أطلقوا عليها «هيرو بوليس» ومعناها «مدينة الأبطال» .. ثم تغير اسمها إلى «كليزما» ومعناها باليونانية «نهاية الطريق» وعندما حكمت كليوباترا مصر أطلقت عليها «كليو باتريس» .

وفـى العصر الرومانـى، أطلق عليهـا «هـيرو - أوى» أى «مدينة الشـمس» .. وفى العصر البيزنطى أعيد اسمهـا «كليزما» .. حتى جاء العرب وحرفوا هذا الاسم إلى «القلزم» .

فـى القرن التاسـع الميلادى، أصدر خمارويه بـن أحمد بن طولون (٨٦٤ - ٨٩٥ م) أمرا بإلغاء الأسماء القديمة، وأطلق عليها «السـويس» الذى لا يزال اسم المدينة الصامدة إلى الآن.

وفى القرن العاشـر الميلادى، أنشأ الفاطميون ضاحية جديدة جنوب غربى مدينة القلزم، أطلق عليها السويس، ما لبثت أن ضمت إليها القلزم القديمة، التى حلت محلها، وأصبحت ميناء مصر على البحر الأحمر.

وفـــى ٢٥ أبريل عام ١٨٥٩، بدأ حفر قناة السـويس، والتى ســال فيها دماء ١٢٥ ألفا من المصريين، حيث دفنوا فيها بسـياط السـخرة، بلا أكفان (!!) إلى أن افتتحت فى ١٧ نوفمبر ١٨٦٨.

وتاريخ السـويس - فيما بعد - هو تاريـخ مصر، وهى تمثل كتيبة متقدمـة من كتائب النضال المصـرى، ولعل ما حدث فى كفر أحمد عبده (طريـق القاهرة - السـويس) عند الكيلـو ٩٩، يعد شـاهد عيان قويا على تجبر القوى الاسـتعمارية، ممثلة فـى البريطانيين حينما دمروا «هذا الكفر» فى العام ١٩٥١، نتيجة تصدى الفدائيين لإرهاب الإنجليز، فكان الجزاء التدمير الكامل، سوف تظل «مثل هذه القرية كمثل دنشواى منقوشـا على صفحات قلوب المصريين أثرا باقيـا للفظائع وأعمال الظلم والجبروت التى ارتكبها الاحتلال البريطانى فى أرض الوطن».

وفى إطار تتابع التاريخ، تدخل معركة السويس ١٩٥٦، لتشكل فصلا من كتاب الحرب والنضال للشعب المصرى، وقد نظر المعتدون إلى السويس - نظـرة مغايـرة - فى خططهم الحربية، إذ إنها - أى السـويس - قاعدة رئيسـية لتموين حامية شرم الشيخ وجزر سـنافر وتيران وميناء الطور، كما أنها تزخر بمعامل تكرير البترول واستخراج مشتقاته.

وبالاسـتيلاء على السـويس، تصبح قاعدة للزحف إلى الغرب نحو القاهرة، لكن قذائف مدفعية السـواحل المصرية كانت بالمرصاد للسـفن المعادية، كما تصدت المدفعية المصرية لطائرات العدو، والمقاومة الشعبية جاهزة «للقنص» وفشـلت القـوى المعادية فى الاسـتيلاء على المدينة،

كما فشلت في حربها بشكل عام.. وكان النصر، انطلاقة كبرى للشعب العربي في مصر، إلى أن جاء ٥ يونيو الحزين.

..

وبحلول ٥ يونيو ١٩٦٧.. يبدأ فصل جديد، من كتاب الحرب.. فقد كانت مصر «المتوهجة» .. الماضية قدما في طريق البناء والتنمية. . مصر عدم الانحياز، وحركات التحرر في آسـيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية، مصر الكتيبــة المتقدمة في مواجهة صلف الإمبرياليــة العالمية.. يأتي الخامس من يونيو.. ليوقف طلائع التقدم.

والتســاؤل: كيف حال مدينتنا السويس ؟ كيف حال شعبها وهي في قلب المعركة ؟ !

وللإجابــة عن التســاؤل.. أقدم شــخصية سويســية قلبــا وقالبا.. لا يمكن للمرء أن يزور الســويس دون أن يلتقي به.. وإلا فاته كل شيء، رائحة التاريخ، روح المقاومة .. إمكانيات المبدع في مختلف المجالات .. صديق السوايسة على اختلاف مشاربهم واعتقاداتهم ورؤاهم ! !

الرجــل اسمه: كابــتن غزالى.. واحــد ممن صنعــوا روح المقاومة، وصاغوها فنا رفيع المســتوى، حتى أصبح واحدا من الأسلحة الهامة في سنوات الصمود والاستنزاف «٥ يونيو ١٩٦٧ - ٦ أكتوبر ١٩٧٣» .

وإن كان يبادرني: «أنا مواطن من المواطنين المصريين. شأنه شأن الملايين من أبناء الوطن الغالي، مجرد واحد من آلاف السوايسة، الذين لا يبخلون بما يعرفون ويعملون، عندما يكون الوطن في حاجة إلى جهدهم.

ويؤكد الرجل (٧٠ سنة) : «ما كنتش في يوم أحلم بنشان.. ولا حتى يوم يبقى لى شـأن !! إنما ما أؤمن به، وأعتقده: بأن قيمة الإنسان هى فى قيمة دوره فى الواقع، كما أنه لا شـىء فـى الدنيا يعوض عن قيمة «إنك حى وعايش» خصوصا إذا كنت «سويسيا» !

وغزالى – الذى يتنفس السويس ولا يستطيع أن يغادرها إلى أى مكان فى الدنيا، لأنه فى ذلك مثل السمك، إذا خرج من الماء: مات !!

– اسأله عن السويس صباح ٥ يونيو ١٩٦٧ ؟

– كان الناس قد علقوا الورود على رقاب المدافع.. فضلا عن أنهم كانوا يغنون للجيش المصرى.. مأخوذين فى ذلك بالتصريحات التى أعلنت، لأن المسألة عبارة عن ساعات ونسمع صوت الراحل العظيم من تل أبيب !

بهذا التفـاؤل كان الناس يعيشـون، ويفتحـون بيوتهم للجيش، تساعده، وتدعمه فى كل شىء. !

لكن فـى ظهر يـوم ٥ يونيو، ولأن السـويس الأقرب إلى سـيناء. لا يفصلنا عنها سـوى ١١٠ أمتـار هى عرض القناة .. فقـد عرفنا قبل غيرنا، بالهزيمة الكاسحة !

والسـويس – والكلام مازال للغزالى – مدينـة متفردة، حظ المواطن فيها كبير، لذلك شـهدت سنوات الستينات توهجا، أفرز نشاطا ثقافيا وسياسـيا واجتماعيا، فضلا عن «البسـطة» فى المعيشـة، لذلك لا تجد هناك أزمات بطالة، ٩٠ ٪ من أهلها يعملون فى البحر، ويحتكون يوميا بالحضـارة، كل ذلك جعلها – دائما – مدينة متوثبة، وقد تواصل ذلك

مع تاريخها، إنها مدينة في مقدمة المدن المصرية المعرضة دوما للشرور الاستعمارية.

– كابتن غزالي: ما حدث في ظهر يوم ٥ يونيو ١٩٦٧ في السويس، سـوف يظل محل تقدير، وإن كان يحتاج لدراسـة: وتقييم، وتحليل، ذلك أن تجربة السـويس هي في الواقع تجربة شـعب، وتجربة عمل وطنـي، أعتقـد أنه مـازال صالحا لتطبيقـه لـدى كل الجماعات التي تحب الوطن.

هـل أوضحـت لنا، كيـف اسـتقبل شـعب السـويس الهزيمة ؟ وماذا فعل الشـباب السويسـي إزاء ذلك ؟ هل لطم الخدود، أم تحرك في اتجاه ثان !؟

– يقـول: الناس في السـويس – كانوا – مهيئين لرفض الاعتراف بالهزيمـة، وبدأوا علـى الفور في التعامل مع الجيـش، باعتبار أنهم «أولادهم» .. وأنهم «خدعوا» .. شـأنهم في ذلك شـأن الشعب المصرى، وأنه لم يقدر لهم أن يحاربوا، أو يواجهوا.

وقد بدأ مجموعة من الشـباب السوايسـة تفكر بسرعة – في وقت تعطل فيه التفكير على المسـتوى الرسمي – كيف نعمل على ألا تسيطر الهزيمة على الناس ؟

إذن علينـا أن نكوّن «مجموعة إعلامية ترمى كلاما وسـط الناس»، خصوصا وأن هناك فرقا كبيرا «بين النصر عالى الصوت، والهزيمة التي تراها العين» ! !

وكونــا لجنة أخرى، بدأت تدعو إلى «تجييــش» المدينة، وانطلقت مجموعات من الشباب تهيئ المدارس لاستقبال «العساكر الشاردة» فضلا عن حمل المصابين إلى المستشفيات للعلاج.

إذن لا بديل عن المقاومة.. لا سيما وأن معظمنا كانت له سابق ممارسة في حروب ٤٨، ٥١، ٥٦، فضلا عن تجربة السويس المريرة مع الاستعمار، حيث كان يسكنها في العام ١٩٥١ نحو سبعة آلاف أسرة بريطانية.

بهذا الوعي: انطلق كل الناس، في حالة من حالات الإصرار والاستماتة في الدفاع عن المدينة، ولم يكن أمامنا ســوى «تجييش» الناس، وفضلا عن اللجان الســابقة، شكلت لجان تبحث عن العساكر الشاردة في تيه سيناء، وذلك من خلال شباب يعرف دروب سيناء جيدا.. وتسليمهم لوحداتهم.

ظلال ٥ يونيو كثيفة!

لذلك علينا أن نفكر بشــكل استراتيجي لمعايشــة هذه الظروف، لأن الحرب لن تنتهي في يوم وليلة.. إذن لابد من تدريب الناس على السلاح، لذلك كانت كل شوارع السويس في فترة وجيزة «مجيشة».. وفي مواجهة مع الإسرائيليين على طول ضفة القناة برغم آلياتهم وإمكانياتهم.

بدأنا في نظام إعلامي، بشرط أن يكون للناس - هنا في السويس - دور المشــارك في الحوار، شرحنا فيه أبعاد المســئوليات الملقاة على عاتقنا - والتي تحملها الأيام القادمة، وتدبرنا ســويا مصير الســويس، خصوصا وأن الاعتداء الاســرائيلي كان يوميا على المدينة، لاســيما وأنه لا توجد

حدود بيننا وبينهم سوى عرض القناة، هنا، فإنه لا يوجد محل «لصفارة الإنذار» لأنه فى «ثانية واحدة» كنا نجد الطائرات فوق رءوسنا ! !

..

لقد باتت المدينة كلها تحت الخطر، فكان لابد، وتبعا لذلك، أن يكون عملنا فى هذا المستوى من المسئولية، لذلك فقد استجاب الناس لدعوتنا، بل أكثر من ذلك، فقد قام الشباب السويسى بعمليات فدائية على جانب كبير من الشجاعة والإقدام، مثلما فعل محمد عبد ربه، الذى سبح فى القناة وأبطل مسرحية إسرائيلية كانت تستهدف الاستيلاء على نصف القناة الشرقى، بأن أبطل قناديل كان قارب اسرائيلى يقوم من خلاله بتثبيت علامات.. بل إنه أسر الجنديين. !

..

– من الواضح يا كابتن غزالى.. أن أشكالا متعددة من المقاومة، قام بها الشباب بقيادتك.. حدثنا إذن عن التجربة الإبداعية والفنية التى صاحبت المقاومة، والتى استهدفت – بالأساس – تنمية عناصر المقاومة الذاتية عن طريق الفن ؟

– بداية : معروف عن السويس أنها مدينة تغنى، فضلا عن كونها مدينة فلكلورية، ولأن الفن واحد من الأسلحة الخطيرة جدا، فى تنمية عناصر المقاومة الذاتية، لذلك كان يلزم استحداث أشكال من الإبداع تعايش الناس، خاصة «الغنوة» بشرط أن تحمل مضامين تساعد الجنود على أن يعيش حياته «كإنسان» على أن تتحول «الحبيبة» إلى «وطن» وإلى «كرامة».

هـذا فضلا عن دورنـا فى إعلام الوطن بكيفيـة أو بأخرى، بالواقع الموجود فى السويس، كنا نستهدف من تجربتنا الفنية «تجييش الوطن كله» لمواجهة هذا العار الذى فرض علينا.

هنا ظهرت فرقة «ولاد الأرض» التى أنتجت ٤٨٣ نصا خلال ست سنوات هى وثائق فى السياسة، والعمل الوطنى، فضلا عن أنها كانت ظاهرة حقيقية للمقاومة، من خلال توظيف الأدب الشعبى مستهدفة إعادة صياغة الوجدان المصرى، من خلال رفض الهزيمة، وعدم الاعتراف بالأمر الواقع.

غنينا الذى يجب أن يكون.. وليس ما هو قائم:

أبوح يا أبوح
دم البلد مسفوح
يا صاحب البقرة
يا زراع الشجرة
تطرح وتديهم
والطمر فيهم
باعونا للكفرة!

وقلنا:

ماتقوليش
ماتعدليش

حـل واحـد غـيـره مـفـيـش
لأجل ولادنـا الجايـة تـعـيـش
الحرب الحرب.. وغيره مفيش
قـــــوة أمـــريـــكـــا
أمـــور بـــولـــتـــيـــكـــا
حلف الأطلنطي مايهزمنيش!

..

من هنـا كانت الأغنيـة هي الوسـيلة المتاحة - كمـا يقول كابتن غـزالي - بعد أن احتـل الجيش المصري مواقعه، وجـدد دماءه وأصبح هناك «تراشق» بين الطرفين، أو ما سمي بـ «حرب الاستنزاف» .

كان علينا أن نصبح في خدمة القوات المسلحة، وأن نحرس المنشآت وأن نغني.. أي إن الموقف كان يسـتلزم أن يكون لنا معايشة حضارية، نقرأ ونكتب ونرسم ونمثل ونغني ونرقص، فضلا عن أننا نحارب !

وقد أفرز هذا الإبداع مسـرح الخندق، وسينما الخندق، وغنوة ولاد الأرض.

- وبماذا تفردت ولاد الأرض ؟

- تفردت بالغنوة الجماعية، التي يمكن ترديدها بأي مجموعات، وبأي أصـوات، فضلا عن أنها كانت تقوم بنقل أخبار الاسـتنزاف من الجبهة إلى باقي الوطن عن طريق «الغنوة» !

بل لا أغانى والكلام لغزالى إذا قلت: إن أغنية ولاد الأرض كانت عبارة عن «منشــور سياســى» يحمل تعبيرات الناس، ولغتهم، ومقولاتهم، ويحملها مضامين تدفع إلى الصمود، والمقاومة الذاتية:

مــش هــانــســلـــم

لا.. لا

رأى الشعب صاحب الحق

رأيــه قــالـــه وعــالـــى

عــالـى.. عــالـى.. عــالـى

يــوم ٩، ١٠ يـــونـــيـــو

دفـــع ثـــمـــنـــهـــم غـــالـــى

مــش هــانــســلـــم

لا.. لا

..

الغنوة هنا تحرض على عدم الاستســلام، ورفض الهزيمة والســير قدما فى طريق النضال.

..

وفى المشــوار.. مشــوار الصمود علــى أرض الســويس كانت أغنية ولاد الأرض، دافعــة للصمــود، متفائلــة واثقــة، تحلــم بغــد يحمل نصرا حتميا:

فات الكثير يا بلدنا

مابقاش إلا القليل

إحنا ولادك يا مصر

وعينيك السهرانين

نصرك أصبح نشيدنا

واللى يعادينا مين

بينا يالا بينا

نحرر أراضينا

وعظم اخواتنا

نلمه.. نلمه

نسنه.. نسنه

ونعمل منه مدافع

وندافع

ونجيب النصر

هدية لمصر

نكتب عليه أسامينا

– كابتن غزالى: كنت أنت الشاعر والملحن والموزع والقائد، فى تجربة «ولاد الأرض» .. هل هذا صحيح؟

- كنا تجمعا واحدا، متفاهما، أحلامه واحدة، وموقفه واحد، لذلك يمكن أن نقول: إن «ولاد الأرض» كانت تجربة جماعية إلى حد الشيوع، أى واحد يمكن أن يؤلف، أو يكتب، أى واحد يمكن أن يلحن، والحقيقة الثابتة فى هذه التجربة، التى انطلقت مع طلقات المدافع، أن الغنوة كانت تستلهم من الواقع، وأكتبها كشاعر وأطرحها - فى الخندق - للمناقشة.

كما أن الظرف كان يملى علينا شكل الكتاب، وكان من حق كل واحد فى الجبهة أن يقول (فرد فى المقاومة - طبيب - عسكرى - ضابط) .. من هنا خرجت التجربة بشكل ديمقراطى، ولم تكن الغنوة - هنا - تطريبية، إنما كانت تعبيرية، لبعث الهمة والحماس بين الناس «عسكريين ومدنيين».

..

كانت ست سنوات عاشتها السويس تحارب وتغنى، وأى شعب هذا الذى يغنى للنصر، وهو مهزوم، وأى شعب هذا الذى أنتج أعظم أنواع الأدب والفن فى سنين الهزيمة.

هى - بالقطع - مقاومة ذاتية، نوع متفرد من الشجاعة، سيجله التاريخ حتما !!

ست سنوات «تحضير» لأكتوبر النصر.

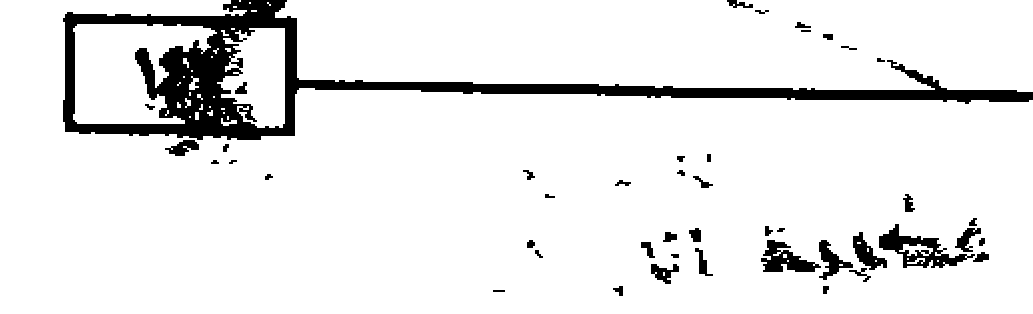
ابتسم..
أنت فى الاسماعيلية ؟

مدينة

الإسماعيلية.. مدينة رقيقة. . باسمة.. ثانى مدن شط القناة.. المشاركة دوما بإنسانها فى التراجيديا، التى صنعتها ظروف المكان والزمان.

وإذا كانت سيناء ميناء بوابة مصر الشرقية ، فقد كانت أرض الإسماعيلية متداخلة مع سيناء قبل شق قناة السويس، لذلك فهى النطاق الأوسط، والمثلث الشمالى للصحراء الشرقية، ولم يكن بها سوى البحيرات المرة الكبرى والصغرى، وبحيرة التمساح، التى كان يعيش على شواطئها بعض القبائل العربية التى تشتغل بالرعى والصيد، وتعتبر أرض الإسماعيلية مفتاح هذه البوابة .

والثابت تاريخيا أن أرض الإسماعيلية قد عبرها العديد من الأجناس قبل الميلاد سواء القادمة من جهة الشرق، أم الشمال الشرقى، ثم الغزو التركى، كما كانت – هذه الأرض – مسارا للأنبياء والرسل عليهم جميعا الصلاة والسلام، فقد مرّ بها أبو الأنبياء إبراهيم وزوجته سارة، ومن بعده يوسف وأمه، ثم يعقوب حين أرسل إليه ابنه يوسف عليهم جميعا الصلاة والسلام.



وتتعاقـب صفحـات التاريـخ في هـذه المنطقة، إلى أن جـاء الفتح الإسـلامي، ودخل عمرو بن العاص وجنوده مصر، متخذا طريق سيناء ليصل إلى العريش، ثم يحاصر مدينة الفرما.

ويأخذ تاريخ الاسماعيلية شـكلا «متصاعدا» بحفر قناة السويس في ٢٥ أبريل ١٨٥٩، بينما في ١٨ نوفمبر ١٨٦٢، نشهد تدفق مياه المتوسط فـي بحيرة التمسـاح، وفي ١٨ مـارس ١٨٦٩ ثم وصل البحر المتوسـط بالبحـيرات المـرة، وفي ١٥ أغسـطس ١٨٦٩ تم وصـل البحر الأحمر بالبحـيرات المـرة، إلى أن تم افتتـاح القناة للملاحة فـي ١٨ نوفمبر ١٨٦٩.

وبحفر قناة السـويس وما تلاه من أحداث، تشكل فصولا من ملحمة الإنسـان العربي في مصر، في صراعه مع القوى الاسـتعمارية، حيث تكلـف المصريون – مبدئيا – فـي الحفر معاناة ١٢٥ ألفا منهم، تداخل عرقهم مع دمهم مع دمعهم، في تراجيديا، سـجلها التاريخ بأحرفه، ليقول دوما: البقاء لأصحاب الحق، الأرض، والعرض.

لذلـك: فإن الإسماعيلية بصورتها الحاليـة، كانت كمدينة نتيجة لمشـروع ربط البحرين الأبيض والأحمر عن طريق قناة السـويس، وهو المشـروع الذى حل محل القناة القديمة، التى كانت تربط بين البحرين عـن طريق قناة النيل، وقـد قامت بالفعل – هذه المدينـة – مع افتتاح القناة العالمي للملاحة عام ١٨٦٩، حيث شهد هذا الافتتاح ملوك العالم ورؤسـاؤه، وظلت القناة عبئا على مصر بعكس ما كان مستهدفا منها،

وصــارت مطمعــا للدول الغازية خاصــة بريطانيا، التــى أصدرت أمرا لأسـطولها باحتلال كل من بور سـعيد والإسماعيلية، في الوقت الذى لم تجـد فيه «المقاومة» نظرا لخيانــة خديوى مصر آنذاك، التى مهدت لدخول الإنجليز الاسماعيلية، وجعلها أكبر قاعدة بريطانية في الشرق الأوسـط، ثم تجدد النضال مــرة ثانية لتعـود الإسماعيلية إلى أحضان أمهــا «مصر» فى العام ١٩٥٦.. ليكتب فصلا جديدا من فصول تراجيديا الإنسان المصرى على شط القناة.

والاسماعيلية كانت تعرف قديما باســم «قرية التمســاح» وسميت بالإسماعيلية.

وقد ارتبط اســم الإسماعيلية بجميع معارك التحرير التى خاضتها مصــر، وفي الخامس من يونيو ١٩٦٧ تعرضت في ذلك، شـأنها شــأن التوأم «بورسـعيد والسـويس» للعـدوان الإسـرائيلى، وكانت مركزا للهجوم حيث تعرضت لنيران العدو اليومية طوال حرب الاسـتنزاف، ممــا أدى إلى هجــرة أهاليها وناسـها إلى مختلـف المحافظات، حتى معركة السادس من أكتوبر ١٩٧٣.

ولأكتوبر وقع خاص في الإسماعيلية، ففضلا عما تم إنجازه فى عام ١٩٧٣، فان عام ١٩٥١ قد شـهد في اليوم السادس عشر من هذا الشهر اندلاع الشــرارة الأولى لحركة المقاومة الشـعبية ضــد الإنجليز، حيث خرجــت أول مظاهرة من طلبة المدرسـة الثانوية والتى طالبت بتحرير أرض القناة وطرد الإنجليز.

أما فى اليوم الخامس والعشرين من يناير ١٩٥٢ ، فقد ارتبط بتضحيات «الإسماعيلاوية» مع إخوانهم فى جهاز الشرطة، حيث اشتعلت الثورة ضد الغاصب، وقد احتلوا مبنى المحافظة، وقامت معركة ضارية برغم عدم التكافؤ التسليحى بين العدو وأبناء الإسماعيلية وجهاز الشرطة.

وتتوالى الأحداث الدرامية، وفى قلبها الإسماعيلية، بدءا من العام ١٩٥٦، ووصولا إلى الخامس من يونيو ١٩٦٧، ثم الفترة الزاهية فى تاريخ الإنسان المصرى، الذى أكد قدرته على المقاومة الذاتية المتنامية داخله، حتى كان السادس من أكتوبر، فأحداث الثغرة، ثم التفاوض، وصولا إلى ما نحن فيه الآن.

بورسعيد..
قصيدة عشق فى الوطنية

بورسعيد .. قصيدة عشـق فى الوطنية.. وقصة كفـاح على مر الزمن.. ومطمع غزاة الغرب، ومحطة القادم والمسافر.. بوصفها مدينة محاطة بالمياه.

ففى الشمال البحر المتوسـط، وفى الجنوب الغربى بحيرة المنزلة، وفى الوسط تخترقها قناة السويس.

والثابـت تاريخيا، أنه لم يكن فى موقع المدينـة عند مدخل القناة أى تجمع بشـرى، بل كانت هناك قريـة للصيادين عند «الجميل» التى تبعـد غربا بنحـو ٨ كيلو مترات، وعلى قرابـة ٢٨ كيلو مترا، كانت هناك مدينة ساحلية اندثرت معالمها منذ قرون، كانت تسمى «برامون» أى مدينـة الإله «آمـون»، ثم أقـام اليونانيون ضاحيـة لهما أسموها «بيلوز» وقد انسـحب اسـم «بيلـوز» على الموقع كله، فسـميت منطقة «بيلوز» ومعناها «الطينة» لكثرة الأوحال بها، وهى مواجهة لما يعرف باسم «برمون» أو «برما» .. ومنها أسماها العرب «الفرماء» وهى المدينة المعروفة حاليا بـ «تلال الفرما» التى كانت مدخل المسلمين إلى مصر.

□ ومـن موقع الفرمـا كمدينة حدودية سـاحلية، كانت – بالتالى – مسـرحا للعديد من المعارك الحربية والغزوات العسـكرية وبالتالى كانت

حصنــا متقدما للدفاع ضد الغــزاة، وقد أعيد بنــاء حصونها عدة مرات، إلا إنها انتهت على يد الملك «بلدوين الأول» ملك بيت المقدس أثناء غزوات الصليبيين على مصر في العصور الوسطى، وتحديدا في العام ١١١٨ م.

□ وبور ســعيد اســم مركب مــن «PORT» ومعناها مينــاء وكلمة «ســعيد» حاكــم مصر وقت منح امتيــاز حفر قناة الســويس، الذى بدأ مــع صباح يوم ٢٥ إبريل ١٨٥٩، عندمــا رفع العلم المصرى على الموقع، حيث ألقى الفرنســى ديلسبس كلمة وسط العمال والفنيين من الأجانب والمصريين الذين استجلبوا من قرى دمياط وفارسكور وكانوا نحو سبعين عاملا.. «باســم شــركة قناة الســويس العالمية البحريــة وتنفيذا لقرار مجلس إدارتها نضرب أول معول في هذه الأرض لنفتح أبواب الشــرق لتجارة الغرب وحضارته عن طريق مدخل الشــرق» .. ثم أمسك بالمعول وضرب به الأرض مبتدئا أعمال الحفر.. ورحلة النضال للشعب المصرى في بورســعيد، التى كتب أبناؤها بعرقهــم ودمهم ودموعهم تراجيديا الإنسان المصرى على شط القناة..

الفدائية هواية !

□ والثابت تاريخيا.. أن إلغاء معاهدة ١٩٣٦، قد واكبه على صعيد الوطن بأكمله حركة سياســية وطنية نشــطة واكبتهــا - أيضا - ظهور نشــاط الفدائيين ضد معسكرات الإنجليز منذ عام ١٩٥٠، حيث شهدت تصاعدا في عام ١٩٥١.. وإن كانت ذروتها في عام ١٩٥٦.. مع العدوان الثلاثى على مصر.

□ والواقع أن عدوان ١٩٥٦ ، لم يكن وليد تأميم قناة السـويس فقط، ولكنه كان مخططا اسـتعماريا لإجهاض الحركة الثورية فى مصر التى بدأت ملامحها تتضح مع فجر ٣٢ يوليو ١٩٥٢..

□ وأثبتت المقاومة الشـعبية التى أقسـم رجالها وأطفالها ونساؤها علـى البـذل والعطاء من أجل الوطن فـكان لهم مـا أرادوا.. الوطن من نصيبهم والشهادة من نصيبهم والعزة والكرامة من نصيبهم أيضا..

□ وعندما يسـجل التاريخ وقائع ما حدث فى بورسعيد وهو يغنى على أوتار السمسمية:

مـور هـاوس ليه بـس جـيـت

مـن لـنـدن هـنـا واتـعـديــت!

وبـتـظـلـم آه ولا خـلـيـت

واهـى مـوتـك جـوه الـبـيـت!!

ويقول التاريخ أيضا مع البورسعيدية:

بـحـروف مـن نـور وحروف مـن نار

اكـتـب يـا زمـان مـجـد الأحـرار

مـقـدرش عـلـيـه الاسـتـعـمـار!!

فإنه سيدرك أن النصر، كان من نصيب الحق، وكان الحق - ولا يزال - من نصيب الشعوب التى تبحث عن حريتها، ومنها مصر بطبيعة الحال..

..

حسن أحمد: عضو مجلس الشعب المصرى (السابق) وأستاذ الإدارة بجامعة قناة السويس، عاشق بورسعيدى، أو قل «درويش» فى حب هذه القطعة الغالية من أرض العرب «بورسعيد» .

يقولون عنه فى المدينة الصامدة، إنه «رجل موسوعى» «فهو صاحب عقلية مرتبة، يعى الحقائق التاريخية، وعيا سياسيا واجتماعيا، وقد أفاده جيداً قراءاته ودراسته المتعمقة فى علم الاجتماع والجغرافيا السياسية (!!) خاصة، وأنه واحد من تلاميذ كل من عالم الاجتماع الكبير د. سيد عويس، والدكتور جمال حمدان صاحب أعظم مؤلف فى القرن العشرين فى مصر «شخصية مصر» .. وقد أعطاه ذلك رؤية بانورامية علمية للتاريخ المصرى خاصة فى هذه المنطقة.

وكان الحوار معه - خاصة وأنه لم يبرح بورسعيد طوال عمره - !! متعة ذهنية وعقلية، أضفت على ملفنا الإنسانى، فهما متعمقا وعلميا لشخصية البورسعيدى المقاوم، المحب للبقاء على أرضه !

- قلت: أستاذ حسن.. ونحن بصدد الحديث عن «قصيدة عشق» اسمها «بورسعيد المقاومة» المناضلة، عبر مائة سنة أو يزيد.. دعنى أسألك: عن سمات الشخصية البورسعيدية، الرافضة، الصامدة ؟

- يقول فى تأمل: تكونت السمات الخاصة للشخصية البورسعيدية عبر أجيال، وانصهرت النوعيات المختلفة التى قدمت إليها عبر السنين، وأصبحت شخصية ذات معالم واضحة، وكانت البداية فى عام ١٨٥٩.. حيث قدم الفوج الأول من عمال الحفر المشاركين فى القناة من محافظة الدقهلية، أما الفوج الثانى، فقد جاء من محافظة الشرقية.. ثم توالت

أفـواج أخرى من: الدقهلية، الشـرقية، صعيد مصر خاصة من أسـيوط الواصلـة حدودها - فى هـذا الزمان - إلى ما بعد سـوهاج.. وإن كانت عناصر قليلة جاءت من المنيا وقنا وأسوان، والغربية من شمال مصر.

انصهرت هذه النوعيات، أو تلك العناصر فى محافظة، بيئتها فقيرة، لا زرع فيهـا ولا نبـات كل مـا تأكله «مسـتورد» عـبر حدودها !! فهـى منعزلـة عن جيرانها بمسـاحات مائية ضحلـة، حيث تفصلها بحيرة المنزلة عن محافظتي الدقهلية والشـرقية، وعن سـيناء بحيرة البردويل، وإن كانت بورسـعيد مميزة فى الموقـع بأنها تقع فى أقصى شمال شـرق الدلتا، كما تقع على مشـارف البحر المتوسط، وتخترقها قناة السويس، وهى بذلك تعد البوابة الرئيسية لمصر، والتى يدخل من خلالها القادم من أوروبا إلى بلاد العرب كلها.

وقد فرضت هذه البيئة على السـكان عبر العصـور، فعالية البحر، أو الصراع معه، ولذلك يحلو لى أن اسمى إنسان بورسعيد: «الإنسان الذى يغالب الطبيعة الفقيرة» !! فعليه - إذن - أن يستنبط قوته من الطبيعة، كيف يأكل ؟ كيف يعيش ؟ أين يعمل؟ ومع من يعمل ؟

هكذا فرض على المواطن البورسـعيدى فى تاريخنا كله، والذى يبدأ من ٢٥ أبريل ١٨٥٩، تاريخ أول فأس ضربت فى أرض قناة السـويس، وأول علامة لقيام هذه المدينة، والتى سميت على اسم حاكم مصر آنذاك، أن يغالـب الطبيعة، فضلاً عـن أنه أمامنا مرفق اقتصـادى هام تعيش من خلاله «قناة السـويس» وميناء بورسعيد، وإلى ما قبل المنطقة الحرة

فى العام ١٩٧٥.. كان يقدر عدد الحرف التى تعمل فى الميناء، بطريق مباشـر أو غير مباشر بنحو (٦٢) حرفة.. ذلك يعطى مؤشرا بأن معظم المواطنين الذين يعملون بطريقة مباشـرة أو غير مباشرة، هم يعملون - فـى واقع الحال - بشـكل مذبذب و غير مسـتقر، وتلـك طبيعة عمل الموانئ بشكل عام فى كل الدنيا.

لذلك فقد خضعت بورسـعيد لظروف الاقتصـاد العالمى، فإذا كانت هناك حركة اقتصادية «مزدهرة» عكست نفسها على مواطنى بورسعيد، والعكس كذلك من خلال الكساد العالمى، الذى يفرض ظلاله على حركة العمـل فى المدينـة.. وهذه الحركة الملاحية من خـلال «الميناء والقناة» جعلت المواطن البورسعيدى يذهب صباحاً إلى الميناء ويكد، ويتعامل مع جنسيات مختلفة، فرضت عليه أن يكون «أكثر مهارة وحرفية» .

وعامل آخر.. لعب دوراً فى تركيبة الشخصية أن البيئة البورسعيدية، لم تكن - فى البدايـة - تحمل طبيعة بيئة المدينة، ذلك أن المجموعة الأولى التى تولت عملية الحفر فى القناة، والتى بلغت ٨٢ رجلا، كانوا من ريف مصر، من الدقهلية، خاصة مركز فارسكور.

ذلك فضـلاً عن أن المدينة فيما بعد، كانـت محطة للهجرة العالمية، يونـان، إيطاليين، يوغسـلاف، وهذا الاختـلاط الغريب من الأجناس، انعكس على طبيعة حياة البورسعيدى فالعاملون هم المصريون، وأصحاب العمـل هم الأجانب !! .. وقد اسـتطاع المصريون فـى مراحل عديدة من تاريخهم على أرض بورسعيد، إثبات وجودهم خصوصا بعد عام ١٩٥٢.

وأســجل للتاريخ أنه قبل عــام ١٩٥٢ كانت فـرص إثبات الوجود «محدودة» أما بعد ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤ فقد زادت نسبة البورسعيدية الباحثين عــن «إثبات الوجــود» بدرجة كبيرة.. ذلــك أن الجميع كان يبحث عن فرصة الحياة والمستقبل خاصة من الشباب، وبعد رحيل أعداد كبيرة من الأجناس الأجنبية التى كانت تعيش هنا فى بورسعيد .

أقــول هنا : إن هذا الاختــلاط العجيب بين المصريــين والأجانب، جعل «البورســعيدى» أكثر إصراراً على إثبــات وجودهم، والذين قالوا للأوروبيــين الراحلين: «إننا– المصريين– قــادرون على إثبات قدراتنا الذاتية ليس أمامكم فقط، ولكن أمام العالم كله» ! !

ودعنى – أضرب مثلا هاما لهذه المشكلة المتفردة – إنه عند «الإعصار العدوانــى فى ١٩٥٦ ، كان التســاؤل: هل يترك البورســعيدى المدينة. أو يتصدى بمصريته لهذا الإعصار.

والإجابــة – كما ســجلها التاريخ هو البقــاء والتصدى بكل القوة.. ومثال آخر على شجاعة المصرى فى بورسعيد، أنه عندما دخل الإنجليز مصــر فى عــام ١٨٨٢ – وبطبيعة الحــال لم أكن قد ولــدت بعد.. لكن سمعــت وقرأت وســجلت فى بحوثى خرج المصريون فى بورســعيد مع عرابى ليعرضوا مطالبهم بكل شجاعة وبسالة، ولم يهابوا القتل، وأذكر أن من بين آثار بورســعيد القديمة قرية تسمى «أحمد عرابى» التى كان قد استوطنها بعض مقاتلى عرابى، وهى تقع أقصى غرب بورسعيد.

إذن: المواطــن البورســعيدى – فــى كل مراحل حياتــه – لم يتأثر

بأى عدوان، أو تيـارات أجنبية وافدة عليه.. وأضرب مثلا فى الحرب العالميـة الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) هـل تعاون المصريـون مع الإنجليز؟ أبدا لم يحدث! ! .. وأريد أن أسـجل: أن العامل البورسـعيدى كان - دوما - أمينا على مصالح بلاده، وقد ذكر د. النجيلى فى دراسة هامة له أن أول أحزاب لعمال الموانئ فى مصر، وأول مناداة بتأميم قناة السويس على أن يديرها مصريون كان من نقابة عمال بورسـعيد فى العام ١٩٢٣ حيث كانت هذه النقابة تضم مصريين وأرمن ! !

كما يذكر التاريخ.. أن عمال بورسعيد من خلال نقابتهم فى عامى ٤٨ و ١٩٤٩ تصدوا للشركة الفرنسية، وطالبوا الإدارة بحقوقهم، التى حصلوا عليها بعد سلسلة من المصادمات العنيفة والإضرابات.. وأنه فى عام ١٩٥١ كانت هناك حركة نشطة أسفرت عن مقاطعة السلع الأجنبية فى الميناء.

والمواطن البورسـعيدى لا يهاب شيئا.. يعلن رأيه فى جرأة وبساطة.. دون حس نابض بالمتغيرات السياسية، والدليل أنه مع بداية عدوان ١٩٥٦، قـام بحرق «العلم» الانجليـزى، الأمر الذى أثار رئيسـى وزراء انجلترا وفرنسـا، فضلاً عـن أنه بعد عـام ١٩٧٣.. والمدينة «خربـة» عاد المواطن البورسعيدى «بشوق» واستطاع بشجاعة مواجهة دمار المدينة ! !

التغيير.. لماذا ؟

- أسـتاذ حسن: أى شـخصية لها ظواهرها الفولكلورية.. فى شكل «تحية الصباح، الأفراح، مسـاعدة الغرباء» أى الوجه الإنسانى الآخر

للشخصية.. وكانت هنا في بورسعيد عادات راسخة.. مثلاً في تحية الصباح كانت «صباحين وحته يا بوص» ! تغيرت الآن إلى «صباح الخير، بونجور، جود مورنج» بماذا تفسر هذا التغيير.. أو ذلك التراجع ؟!

– يقول في ثقة الباحث: لم تتراجع: ولم تتغير أى من سمات البورسعيدى، ولكنه ما حدث، إنها اتخذت شكلا آخر، فى أغانينا أو عادتنا أو أفراحنا حيث ارتبطت بالعصر الحالى.. مثلا أغانى السمسمية والبمبوطية.. فقد نشأت مع عمليات الحفر فى قناة السويس، حيث الليل الطويل المرهق، والشمس الحارقة، فهم أناس يريدون الترفيه عن النفس، وذلك من خلال الغنوة على آلاتهم الوترية البسيطة، ومع انتقال عمليات الحفر إلى الجنوب فى القنطرة، وفى اتجاه السويس، زحفت هذه الأغانى، وإذا كانت الأغنية الفلكلورية – فى بورسعيد – غير مطورة، ففى الإسماعيلية أضاف عليها عمال الحفر (من الأقصر وقنا) الذين كانوا يحتفظون بأغانيهم، بعض كلماتهم، فحدث الخلط واللهجات الصعيدية فى الأغنية وأؤكد أنه من خلال قراءة دقيقة لأغانى السمسمية، تبين أنها متداولة بين بلاد العرب جميعا !!

وهناك أغانٍ تسمى «الضمة» وهى التى يغنيها عدد من الناس، تبين من الدراسة الفلكلورية أنها ليست بورسعيدية الأصل، إنما وافدة من «دمياط» وإن كانت فى الأصل «أندلسية» !! جاء بها البحارة العائدون من رحلة سفر شاقة ومتعبة، فعندما يصل إلى بر المدينة (دمياط) يستقبله

أهله وعشـيرته، منضمين فى أغنية جماعية، ترحيب به، وحتى الآن نجد أن السمسـمية والضمـة مازالتا موجودتـين، وإن كانتا قد طورتا، وأخذتا الشكل الحضرى (الكهرباء فى السمسمية مثل الجيتار) ! !

كمـا أن هناك خاصية أخرى للشـعب البورسـعيدى، وهى ظاهرة لم أجدها في أى مدينة أخرى.. وهى أن أسماء الشوارع ترتبط بالدلتا.. ببساطة جداً نجد فى حى العرب (شارع الدقهلية وشارع الجيزة وشارع دسـوق) إلخ.. وذلك يؤكد ترابـط المواطن البورسـعيدى بأمنا العزيزة مصر، وبأسماء محافظاتها ! !

وتأتـى خصوصية الأفـراح البورسـعيدية، فلماذا كانت لا تتسـم بالفخامة الشـديدة، إلا إنـها متميزة ومتمسكة بتقاليد راسخة مثل زفة العروس و نقوطها وإن كان النقوط من نصيب القادرين فقط ! !

كما أن هناك ظاهرة أخرى.. وهى أن بورسعيد مدينة لا تنام.. لأنـها مدينة سـاحلية مرتبطة بالميناء. لذلك نجد أن أى سـفينة تدخل الميناء نهـارا.. أو ليلاً.. تجد من يتعامل معها.. فالشـوارع مملوءة بالناس، والمحـلات مفتوحة، وهـذا «اللا نوم» يؤكد حرص البورسـعيدى على مواجهة أى متغيرات اقتصادية، فمثلا أى متغير أو كسـاد اقتصادى، لا يوقف البورسـعيدى عن السعى عن الرزق، بل إنه يجد أشياء أخرى يتكسـب منها.. من هنا نشـأت كلمة «بمبوطى» وهـى من أصل «بوت» و «بـان» أى قـارب الخشـب.. التى تحولـت وحرفـت إلى «بمبوطى» أى الباحث عن الرزق فى البحر !

هذا – والحديث للأستاذ حسن أحمد مازال البورسعيدى واثقا من ذاته والدليل على ذلك أنه لا يتورع فى أن يقول رأيه بصراحة، محاولا إثبات صحة هذا الرأى بالبراهين والدلائل من القديم والحديث على حد سواء، فهذه العادة لم تتغير وإن كانت قد أخذت شكلا متطورا.

تنشيط الذاكرة!

– قلت: فى إطار تنشيط الذاكرة.. وبحثا عن مدلولات سياسية ذات طابع إنساني.. استطاعت الشخصية البورسعيدية المصرية قلبا وقالبا أن تنحت لنفسها موقعا متميزا على خريطة النضال المصرى.. أعوام ٥١، ٥٦، ٦٧، ١٩٧٣.. إذن وبوصفك من أبناء هذه المدينة، وضح لنا هذه المدلولات من خلال مواقف إنسانية ؟

– يقول: سأذكر «لوحات» تعيها ذاكرتى من النضال البورسعيدى:

☐ فى صبيحة يوم وقف إطلاق النار فى العام ١٩٥٦ وظهور القوات الغازية فى شوارع بورسعيد، كان الناس فى قمة التمرد على النظام، وظهر هذا اليوم تبدل الموقف تماما، وأشهد الله والتاريخ فإننى لم أجد مواطنا واحدا «رخوا» بل إن أعصاب الناس كانت متوترة ومشدودة إلى أقصى درجة بينما لم نكن نعلم حقيقة الموقف، أين وصلت هذه القوات.. فلم تكن هناك وسائل اتصال فهى مقطوعة والكهرباء مقطوعة، والمياه مقطوعة، وأذكر هنا أننا عرفنا أن «صاحب محل فراشة»

يملك «ماكينـة كهرباء» فذهبنا إليه فوجدنا قـد أوصل «الراديو» على ماكينته ومفتوح على «محطة القاهرة» فتجمهر الناس بالمئات يسمعون صـوت القاهرة وهو يعلن «الله أكبر» فى عصر هـذا اليوم كانت المقاومة قد اشـتدت، وجعلت الناس أكثر التهابا، هذا فى الوقت الذى لم نكن ندرى فيه متى نأكل بل ومن أين نأكل ؟!

□ الملاحظـة الثانيـة: أن المقاومـة بدأت تأخذ شـكلا جديدا بعد أيام قليلة، طلبنا السـماح للصيادين بصيد السـمك من بحيرة المنزلة، حيث كانت فرصة لإدخال السـلاح إلى بورسـعيد، مـع عناصر جديدة للمقاومـة «أبـو نار - جـلال غريب - كمـال رفعت» وأسمـاء كثيرة لا يستطيع الإنسان نسيان دورها البطولى.

□ وأذكـر هنا كتاب قرأتـه لصحفى بلجيكـى كان مرافقا للقوات الغازيـة فى العام ١٩٥٦ قال فى مذكراتـه: «ظلت الطائرة تحوم حول موقـع الهجوم لفترة كبـيرة ووجدنا مياها من كل ناحيـة وكان هناك تـردد فى الهبوط وعاد الطيار ليغير زاويـة دورانه وإذا بنيران تخرج من الأرض وتسـلط علينا من كل اتجاه ! وعندما هبطنا، كانت الخسائر فـى القوات هائلة، وفى نفس الوقت طلبت القوات البريطانية الهدنة، وكان هذا اليوم.. يوم الاثنين» !!

□ الملاحظـة الثالثـة: ذلك الالتحام التام بين الشـعب والشـرطة والقوات المسـلحة، وأذكر فـى ذلك الدور الكبير الذى لعبته سـيدات بورسعيد، اللاتى أخفين الفدائيين من غدر قوات الاحتلال.

- وماذا عن ملحمة أكتوبر ؟

- الصورة متباينة بعض الشيء، ففى عام ١٩٦٧ ضربت السويس ومن بعدها الإسماعيلية إضافة إلى بورسعيد وإن كانت فى مواقع متطرفة وكانت الخسائر محدودة فى وابور المياه.. كان ذلك «٦٧ - ٦٨» وفى العام ١٩٦٩ تم تهجير المدينة «النساء والعجائز» وكانت أبرز مواقع التهجير فى دمياط ورأس البر والدقهلية وبقى الرجال فى حالة صمود رائع وتماسك قل أن يوجد سوى فى الملاحم، وفى عام ١٩٧٣ كان الأحرار من جنودنا البواسل بشكل لا يتصوره إنسان فى هذه الدنيا، وفى المنفذ الغربى، رأينا القوات الإسرائيلية التى ضربت كوبرى الرسوة، وقطعت مياه ترعة الإسماعيلية الموصلة لبورسعيد، وكان المواطنون يجلبون المياه بالقوارب عبر بحيرة المنزلة، لكن اليهود لم يستطيعوا الاقتراب من المدينة أو غزوها، بل إن قواتنا دخلت شمال سيناء.

وفى اليوم ٦ أكتوبر واسمح لى بعودة إلى هذا اليوم التاريخى الفذ على صعيد التاريخ العربى كله: عرفنا بالمعركة.. لكن ؟

- لكن ماذا ؟

- شعرنا بحذر غير عادى ! ! إلى أن أعلن أن قواتنا المسلحة «عبرت» ساعتها عرفنا أن ساعة الاقتحام قد حانت ! ! بل إنها تمت بنجاح، الأمر الذى أدركنا معه أن الجندى المصرى، قد كتب بدمه وثيقة النصر، وغسل عارا لم يرتكبه ! !

..

- أستاذ حسن: ما الملمح الإنسانى لسنوات الاستنزاف الست «٦٧- ٧٣» في بورسعيد خاصة فيما يتعلق بالمواطنين العاديين ؟

- يقول: فى شوارع بورسعيد، كنت من النادر أن ترى «سيدة» الجميع رجال، إما بالملابس الكاكي، وإما بالملابس المدنية، أما السيدات القليلات اللاتى كن موجودات - هنا - فكن ممرضات المستشفيات !

كنت ترى ارتباطا وحنينا شديدا بين المكان والناس ! فنجد أن المواطن البورسعيدى يحييك دون سابق معرفة، ولكن الترابط وحنين الناس مع بعضهم، كان أشد تماسكا وترابطا.. ذلك فضلا على لهفة الناس على بعضها، ويتجلى ذلك في السؤال الدائم عن الذى يتأخر عن العودة، والبحث عنه، إلى أن يتم الاطمئنان عليه .

لكن الذى لا أنساه.. يوم أن ألغيت تصاريح دخول بورسعيد فى العام ١٩٧٤.. ذلك المهرجان الكبير، والتدافع الشديد من الناس للعودة، عربات تجرها الخيول تمتلئ بالناس، والأشد إنسانية ذلك الشيخ المسن الذى يقبل أرض المقابر، ويبكى فرحا لأنه سيدفن فى بورسعيد. !

الفهرس


العدد
القادم


التقاويم وقياس الزمن
د. أحمد عبد الهادى

اشترك فى سلسلة اقرأ تضمن وصولها إليك بانتظام

الاشتراك السنوى :

- داخل جمهورية مصر العربية ٦٠ جنيهًا.

- الدول العربية واتحاد البريد العربى ٨٠ دولارًا أمريكيًا.

- الدول الأجنبية ٩٠ دولارًا أمريكيًا.

تسدد قيمة الاشتراكات مقدمًا نقدًا أو بشيكات بإدارة الاشتراكات بمؤسسة الأهرام بشارع الجلاء - القاهرة.

أو بمجلة أكتوبر ١١١٩ كورنيش النيل - ماسبيرو - القاهرة

الأرض ، النهر، البحر:
ومن ثم البشر
كونوا شخصية مصر، وشيدوا حضارة هائلة عبر آلاف السنين، وصار لكل إقليم منها عاداته وتقاليده وموروثه.. وقد انصهرت كل هذه الخصائص فى خاصية واحدة شكلت شخصية مصر، المتدفقة، المؤثرة، الملهمة.

وهذا الكتاب «بوابات مصر» محاولة للغوص فى الأماكن، فى الأقاليم، فى المدن التى احتلت عبر التاريخ المصرى مكانا، نظرا لجغرافيتها، فمن رشيد كانت الغزوات الأجنبية، ورشيد كما يقول العم جمال حمدان: صدرت الخام الذى انتقل عبر النيل إلى البحر المتوسط، الذى تم استيراده مرة أخرى «مصنعا وغزاة»!

والأقصر، مدينة الحياة والخلود، ومركز الحكم فى مصر القديمة سنوات عديدة، ومثلث حلايب وشلاتين، نقطة الانطلاقة المصرية إلى أفريقيا، والسويس، تاريخ فى الحرب والمقاومة والحضارة، والنوبة.. تساؤل هام، وإجابة واضحة، النوبة مصرية جغرافيا وتاريخا وعقلا وقلبا.

«بوابات مصر» سياحة فى قلب الوطن، وعقل التاريخ، وأحاسيس ووجدان التراث.


دار المعارف
٤٠٧٨٧١/٠١

